

طبيب عبر الزمن

نظرات تشخيصية في التاريخ والأدب والتربية

منصور سمار الجابري

العبيكان
Obekkan

ح منصور سمار الجابري، ١٤٣٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الجابري، منصور سمار

طبيب عبر الزمن. / منصور سمار الجابري. - الرياض، ١٤٣٨هـ

٢٠٠ ص؛ ١٤ × ٢١ سم.

ردمك: ٦ - ٥٠٧٧ - ٠٢ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١. القصص القصيرة العربية - السعودية

أ. العنوان
١٤٣٨ / ٩٩٥٣

ديوي ٠١٩٥٣١، ٨١٣

حقوق الطباعة محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

٢٠١٨ هـ / ١٤٣٩ م

الناشر **العبيكان** للنشر

المملكة العربية السعودية - الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة

هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤ فاكس: ٤٨٠٨٠٩٥ ص.ب: ٦٧٦٢٢ الرياض ١١٥١٧

www.obeikanpublishing.com

كتبنا على جوجل
 Google Play


Kitab Sawti
www.kitabsawti.com


Dhad Audio Publishing
www.dhad.sa

بوكس.كوم
B8KS.COM

امتياز التوزيع شركة مكتبة **العبيكان**

المملكة العربية السعودية - الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة

هاتف ٤٨٠٨٦٥٤ هاتف مجاني ٩٢٠٠٢٠٧ فاكس ٤٨٨٩٠٢٣ ص.ب ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

www.obeikanretail.com

جميع الحقوق محفوظة. ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ (فوتوكوبي)، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من المؤلف.



فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٧
تقديم بقلم أ.د. أيمن عبده	١٥
١- السكر يحقق رؤيا هارون الرشيد	١٩
أ- قصة هارون الرشيد	٢١
ب- تحقيق سبب الوفاة	٣١
ج- إضاءات طبية	٣٥
د- تعبير الرؤى	٣٩
٢- زائرة المتنبى	٤٣
أ- قصة المتنبى	٤٥
ب- تحقيق سبب الحمى	٥٩
ج- إضاءات طبية	٦١
د- متلازمة المتنبى	٦٧
٣- ابن الرومي: النزف يغتال واسطة العقد	٧٣
أ- قصة ابن الرومي	٧٥
ب- تحقيق سبب الوفاة	٨٧
ج- إضاءات طبية	٩١
د- تربية الاستحواذ	٩٥
٤- وفاة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين السم والحمى	١٠١

- أ- قصة الوفاة ١٠٣
- ب- تحقيق سبب الوفاة ١١١
- ج- إضاءات طبية ١١٧
- د- إشكال علمي ١١٩
- ٥- عامر بن الطفيل: غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية .. ١٢١
- أ- قصة عامر بن الطفيل ١٢٣
- ب- تحقيق سبب الوفاة ١٣٥
- ج- إضاءات طبية ١٣٩
- ٦- العدسة أول عذاب أبي لهب ١٤١
- أ- قصة الوفاة ١٤٣
- ب- تحقيق سبب الوفاة ١٥٣
- ج- إضاءات طبية ١٥٥
- د- ما هو سبب السرطان ١٥٧
- ٧- المخبل السعدي: يرى الشخص كالمشخصين وهو قريب ١٦١
- أ- قصة المخبل السعدي ١٦٣
- ب- تحقيق سبب المرض ١٧٧
- ج- إضاءات طبية ١٨١
- د- سر القوة صفة كامنة ١٨٥
- خاتمة ١٨٩
- ثبت المصادر والمراجع ١٩٣
- سيرة ذاتية للمؤلف ١٩٩



مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

ثمت زوايا كثيرة في تاريخنا العربي يلفها الغموض، وتتناولها كتب التاريخ والأدب بشكل يثير التساؤل، وبطريقة تبعث على الدهشة، ولكنها قل أن تروي غليلاً. وليس هذا الأمر سيئاً دائماً، بل كثيراً ما كانت هذه النقاط الغامضة ميداناً تتبارى فيه الأقلام، ويتسابق فيه الكتاب لبيان وجه الحقيقة، الذي يتوارى خلف بضعة أسطر، كتبها مؤرخ أو رواها أديب.

وقد تختلف هذه الزوايا باختلاف القراء أنفسهم، فما لا يسترعي انتباه أحدهم يراه الآخر لغزاً محيراً يكتنفه الغموض.

ولم أكن بدعاً من هؤلاء القراء، بل ثمت العديد من الأسئلة التي كانت تسترعي انتباهي، وتثير فضولي في أثناء القراءة في كتب التاريخ والأدب. فعلى سبيل المثال لا الحصر: كنت أتساءل عند قراءتي لقصة وفاة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن سبب موته. وهل يمكن للسم أن يبقى كامناً في الجسم لمدة أربع سنوات، ثم ينتقض فجأة على هيئة حمى تلحقه بالرفيق الأعلى في أقل من أسبوعين؟ هل من تفسير علمي يقبله الطب الحديث، يشرح ما ورد في الأحاديث الصحيحة عن قصة وفاته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

وكنت أتساءل كلما قرأت سيرة هارون الرشيد رَحِمَهُ اللهُ: كيف عرف الطبيب جبريل أن الخليفة لا يجاوز ثلاثة أيام، ولم ير إلا ماء الرشيد في قارورة؟ ثم ألا يمكن أن تربط الأعراض الواردة في الروايات التاريخية بمرض معروف، يفسر جميع الأحداث، ويؤلف بينها.

وهذا أبو الطيب المتنبى قد وصف الحمى التي أمت به في مصر وصفاً لا مزيد على بيانه، أفلا يمكن تحديد نوعها ومسببها، ولو على وجه التقريب؟

وأي داءٍ حل بابن الرومي حتى اغتال واسطة عقده، ثم أتبعه بأخويه الآخرين، وهم صبية صغار؟

تساؤلات ملحة كانت تتوارد على خاطري كلما سنح الوقت لي بقراءة شيء من كتب التاريخ أو كتب التراجم والأدب. ولا أنكر أن طبيعة التخصص قد أثرت على نوعية هذه الأسئلة والإشكالات، وإن كان بعض هذه التساؤلات قديماً قدم القراءة نفسها، بل كان يرد عليّ قبل دخول كلية الطب.

ومع أن معظم الشخصيات التي تدور حولها الأسئلة تعد شخصيات محورية في تاريخنا العربي والإسلامي، إلا أنني لم أجد في المكتبة العربية ما يطمئن إليه القلب، وترتاح إليه النفس. ولا

أزعم أنني قد استقصيت جميع ما كتب حول هذا الموضوع، ولكن هذه الشخصيات من الشهرة بمكان، بحيث لو كتب عنها على غرار ما كتبه الغربيون عن سبب وفاة نابليون أو الإسكندر الأكبر لعرف واشتهر^(١).

ولم يدر بخلدي -علم الله- أنني سأتجشم عناء هذا الطريق على قلة سالكه ووعورة مسالكه. ولكنني وجدت الأثر حسناً في نفوس الطلبة في أثناء التدريس في كلية الطب عندما نربط لهم أعراض الأمراض بقصة من قصص التاريخ والأدب. فهي ترسخ المعلومة في الأذهان من ناحية، وتوقظ حس الانتماء إلى مآثورنا الحضاري العظيم في نفوس الطلبة من ناحية أخرى.

وقد أشار عليّ بعض الفضلاء أن أوثق هذه المعلومات في كتاب، يلّم شتاتها، ويقرب بعيدها، فشرعت في التأليف، مستعينا بالله متوكلاً عليه. وقد بذلت وسعي لكي يجمع الكتاب بين متعة الأدب، وفائدة التحقيق العلمي، بالإضافة إلى المعلومة الطبية الموثقة، التي تساهم في رفع الوعي الصحي بطريقة سلسلة ومبتكرة.

(١) ثمت عدد لا بأس به من الكتب المعاصرة التي تناولت تاريخ الطب عند العرب والمسلمين، وقد يشير بعضها إشارات عابرة إلى هذا الموضوع، ولكنها أقل من المأمول على أي حال. ويجدر بالذكر هنا أن عمدة هذه الكتب هو «عيون الأنبياء في طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة المتوفى سنة ٦٦٨. وهذا الكتاب على جلاله قدره وندرته في بابه، لم يحقق تحقيقاً يليق به!

خطة الكتاب:

ينقسم الكتاب إلى سبعة فصول مستقلة عن بعضها، بحيث يختص كل فصل بشخصية معينة، أتناول فيه قصتها، ثم تحقيق سبب وفاتها أو مرضها. ثم أتبع ذلك ببند مستقل، أتحدث فيه بإيجاز عن المرض المذكور، وربما أتبع ذلك ببند آخر، أتناول فيه إلمحة تربوية، أو ومضة علمية مستلهمة من وحي القصة.

وقد رتبت فصول الكتاب على حسب درجة الوثوق من تشخيص المرض، فبدأت بقصة هارون الرشيد رَحِمَهُ اللهُ لتوافر الروايات التاريخية، ودقتها في وصف أعراض المرض، بالإضافة إلى وجود فحص أساسي، استخدمه طبيب الخليفة، لمعرفة مدى خطورة المرض على الحياة.

أما قصة المتنبى فقد جاءت ثانياً لدقة وصفه للحمى، التي اعتادت زيارته كل ليل، وبيانه لأعراضها بياناً يصلح مادة لدراسة التاريخ المرضي. ثم أتت بعد ذلك قصة ابن الرومي، لأنه نص على اسم المرض وسبب الوفاة في قصيدته الرائعة، التي رثى بها ابنه. ثم تلتها بقية القصص مرتبة على وفق السبب المذكور.

ويحتوي كل فصل على أربعة بنود:

أولاً: القصة:

أثرت أن أكتب كل قصة بأسلوب أدبي، يقترب من أسلوب الرواية التاريخية، التي تستوعب أحداث التاريخ بأمانة علمية، وتوظف الخيال لإعادة تشكيل الصورة التي كانت عليها الحياة في زمن القصة، بينما تأتي الحبكة الفنية، لكي تقوم بتوزيع الأدوار، وملء الثغرات في هيكل الحدث الروائي. ولا يمنع هذا من وجود بعض السياقات، التي اقتضت أن تكون الكتابة: إما سردية تلتزم النص الحرفي للتاريخ، أو تحليلية تهدف إلى إيصال المعنى للقارئ بشكل مباشر.

وينبغي أن أشير هنا إلى أنني لم أعمد إلى استقصاء جميع الجوانب المتعلقة بالقصة، بقدر ما أهدف إلى التركيز على موضوع الكتاب الأساسي، وهو الحالة الصحية لبطل القصة بشقيها الجسدي والنفسي.

ثانياً: تحقيق سبب المرض:

على الرغم من صعوبة الأمر بسبب ندرة المصادر والمراجع، التي تعنى بوصف الأعراض المصاحبة للمرض، إلا أنني قد بذلت جهدي في استقصاء ما توافر بين يدي من كتب السنة والتراجم والأدب والمعاجم وكتب التاريخ ودواوين الشعراء وشروحها مع الاستعانة

بمحركات البحث لاستكشاف المؤلفات المعاصرة. ثم اخترت عددًا من القصص يترجح عندي أن تشخيص مرضها ممكن اعتمادًا على المعلومات المتوافرة. واقتصر من ذلك على سبع قصص، تأكد عندي أن التشخيص المقترح يدخل - على الأقل - ضمن ما يسمى طبياً بالتشخيص التفريقي» أو (Differential Diagnosis). وقد استبعدت العديد من القصص بسبب عدم الثبوت، أو ضعف الدلالة، أو بسبب تعارض الأعراض المذكورة في الروايات، بحيث لا يمكن أن يستدل بها على مرض معين.

ومن المعلوم بدهاء أن الطبيب قد يخطئ في تشخيص المرض، والمريض حاضر بين يديه، فكيف بمن اقتحم غمار الزمن، واعتمد على مصادر قد كتبت قبل مئات السنين.

ثالثاً: إضاءات طبية:

يهدف هذا البند إلى إثراء القارئ بمعلومات طبية موثقة عن المرض، قد كتبت بأسلوب سهل يستفيد منه المتخصص، ويفهمه غير المتخصص.

رابعاً: إلماحة تربوية أو ومضة علمية:

وقد جعلت هذا البند بمثابة المساحة الحرة، التي أ طرح فيها بعض الآراء التربوية، أو أشير إلى بعض الفوائد العلمية المستوحاة

من القصة. وقد حرصت قدر الإمكان أن تكون الموضوعات جديدة وغير مكررة، وأن تكون في دائرة اهتمام عامة القراء.

وختامًا إنني لأرجو أن يجد القارئ في هذا الكتاب أدبًا يسليه، وتحقيقات علمية تفيده، وإضاءات طبية تنمي ثقافته الصحية.

ولا يفوتني أن أشكر كل من أسدى إلي نصحًا في أثناء التأليف، وكل من شجعني على إكمال الكتاب، وأخص بالشكر كل من البروفيسور شهاب المشهداني رئيس وحدة أمراض الدم بكلية الطب بجامعة الملك سعود، الذي قرأ أغلب التحقيقات العلمية والإضاءات الطبية، و صوب عليها تصويبات مفيدة، والدكتور عبد الكريم ساجي الأستاذ المساعد بكلية التربية في جامعة المجمعة، الذي قرأ مسودة الكتاب كاملة، وعلق عليها تعليقات نافعة.

والله ولي التوفيق.

كتبه

د. منصور الجابري

الرياض - المملكة العربية السعودية

تقديم⁽¹⁾

تأسرني جداً طريقة نداء الإخوة في بلاد الشام للطبيب: «يا حكيم»، وأسأل دوماً: من الذي فرغ مهنة الطب العظيمة من أهم ما فيها: الإنسانية؟ من الذي حوّل الطبيب والممارس الصحي بشكل عام من «الحكيم» إلى مجرد رقم في إدارة شؤون الموظفين في مستشفى؟

هل هي المادية التي التهمت حياتنا؟ هل هو المجتمع الذي همش دور الطبيب وحجره في زاوية ضيقة؟ هل هم الأطباء أنفسهم الذين سمحوا لمهنتهم أن تختصر في وصفة وفاتورة؟
نحن أمام تحديين عظيمين:

التحدي الأول: هو إعادة دور «الحكيم» إلى مهنة الطب، هذا الدور التاريخي الذي بدأ يندثر، الدور الذي يحتاجه المجتمع بشدة. «الحكيم» الذي ينظر إلى المريض روحاً وجسداً وعقلاً، يعتني بكل ذلك ويوازن بينها، «الحكيم» الذي يراعي ظروف المريض ووضعه الاجتماعي، ويفكر في تفاعل هذا المريض مع من حوله، ومع مجتمعه الكبير، بل ومع البيئة المكانية والزمانية التي حوله.

(1) بقلم أ.د: أيمن عبده، الأمين العام للهيئة السعودية للتخصصات الصحية.

إن إعداد طبيب أو ممارس صحي بهذه الصفة أمر في منتهى الصعوبة. ذلك لأنه بحاجة ماسة إلى مجموعة كبيرة من المعارف والمهارات، التي لا بد أن يتقنها ويتدرب عليها، لتأهله لهذا الدور الكبير. هذه المعارف والمهارات ليست في كتب التشريح ولا الجراحة، بل في كتب علم النفس وعلم الاجتماع وعلوم التواصل والإدارة والأدب والشعر، هناك تلتقط، وفي أروقة المستشفيات وغرف العيادات يتم التدريب على ممارستها، وفي عقول وقلوب وأجساد المرضى يتم تطبيقها بمهارة ومهنية عالية. وهذا تحد كبير جداً.

التحدي المقابل هو ترسيخ المهنية، فمهنة الطب لها قواعد وأصول وضوابط، لا بد أن تراعى، لأنها متعلقة بحياة الناس، والخطأ فيها قد تكون عواقبه وخيمة. هذه المهنية فيها الكثير من الحزم والانضباط، والقليل من مساحات الحرية والإبداع غير المنضبط، فليس من المعقول أن تكون أرواح الناس مجالاً للاجتهادات والأفكار غير المجربة.

بين هذين الحدين، أمام كليات الطب والتمريض والصيدلة وكافة التخصصات الطبية مهمة شاقة، وهي أن يكون هناك توازن دقيق في إعداد الممارس الصحي، ليتخرج لنا «ممارس مهني حكيم».

بين يديك في هذا الكتاب مساهمة رائعة من أخي العزيز الدكتور/ منصور الجابري، لإعداد وجبة ملونة. وجبة أعدها أفضل استشاري التغذية، ثم طهاها أفضل طهاة باريس، ثم قدمت بأحسن مطعم في العالم.

أخذنا في رحلة ممتعة مع هارون الرشيد رَحِمَهُ اللهُ، ثم طار بنا على بساط الريح إلى عمنا المتنبى، ومن بعده ابن الرومي، ثم توقف بنا في طيبة الطيبة عند حدث تاريخي، لعله الأهم في حياة كل مسلم، وهو وفاة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم عرج بنا على عالية نجد، حيث التقينا بعامر بن الطفيل، وختم جولته بنا -وليته ما ختم- بأبي لهب والمخبل السعدي الذي كان يرى الرجل رجلين.

وكان في هذه الرحلة (تشارلوك هولمز) حيناً، والعقاد حيناً آخر، في أسلوب أدبي شيق رشيق، وجرعة موزونة جداً، مشبعة غير متخمة، من بهارات السياسة، وأعشاب التاريخ، ولفائف الأدب، وخفائف الشعر.

أعتقد أن هذا الكتاب -بل هذا المنهج كله- الذي ينبه الممارس الصحي بأنه «حكيم»، ويذكره بأن دوره في الحياة هو رعاية الإنسان فكراً وعقلاً وروحاً، والتفاعل معه في كل حالاته وتقلباته، وأنه ليكون كذلك فلا بد أن يزيد حساسية جهاز الإنسانية عنده، لالتقاط الذي

لا يقال، ورؤية الذي ليس عليه ضوء، وعليه أن يفتح قلبه وعقله لمجموعة من المعارف، ويتدرب على مجموعة من المهارات، تؤهله لهذا الدور العظيم.

وحتى نصل لهذه المعارف، ربما نحن بحاجة لوصية ديكارت: «يجب أن نتأمل أكثر مما نتعلم». ذلك لأننا حالما نعتقد أننا عرفنا جميع الأجوبة تقوم الحياة بتغيير الأسئلة.
شكراً يا «حكيم»..



أ: قصة هارون الرشيد^(١)

الرقعة.. حيث يتهادى نهر الفرات، ويترقق ماؤه، وكأنه لا يريد أن يبرح المدينة الحاملة، التي تغفو على ضفته اليمنى، وقد جمع لها بين برد نسيم الجزيرة وعذوبة ماء الفرات. ولماذا عليه أن يرتحل عنها وقد حلت بها الدنيا؟ ألم يهجر الرشيد دار السلام، ويتخذها عاصمة للملكة وقاعدة لجنده، منذ ما يربو على خمس سنين، حتى غدت منارة للأدب وموثلاً للشعراء، فضلاً عن أرياب الصنائع وطلاب المعاشس؟ لقد أقبل هؤلاء من كل حدب وصوب رجاء أن يتسم لهم القدر، فيظفروا بقاء أمير المؤمنين ولو للحظة عابرة.

وبخلافهم جميعاً ثمت رجل واحد يتمنى لو يؤذن له بفراق قصر الخليفة ليوم واحد فقط، عله أن يمتع ناظره بالتجول في أنحاء المدينة. ومع أنه قد بلغ من الكرامة حدًّا جعل الرشيد لا يرد له شفاعة، ولا يخالف له أمراً، إلا أن أقصى أمنياته أن يغادر بيته الفخم الذي ألحق بقصر الخليفة. ولكن كيف؟ وهو أول داخل على أمير المؤمنين، وآخر خارج من عنده؟ وبين هذا وذاك مشغول

(١) للاستزادة انظر: هارون الرشيد أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا، شوقي أبو خليل، والبداية والنهاية (١٤ / ٢٤-٢٩)، وتاريخ الخلفاء، للسيوطي (ص ٤٥٤-٤٦٨).

بمكتبته العامرة التي تملؤها كتب جالينوس وأبقراط، وتزينها كتب أبيه وأجداده آل بختيشوع الأطباء العظام.

بات الطبيب جبريل^(١) ليله يتفكر في شأنه وشأن الناس، فما يراه الناس حظوة وجاهًا، يراه هو قيدًا ثقيلاً على جسده وروحه، وما يطمح الناس إليه هو غاية ما يريد الخلاص منه. ولكن لا صلاح للدنيا بدون هذه الرغبات المتضادة، ولولاها لأصبح الكثير نادراً والنادر معدوماً.

استغرق جبريل في تأملاته التي لم تدع للكرى سبيلاً إلى جفنيه حتى بزغ الفجر أو كاد. نهض من مخدعه ثقيلاً متماوتاً، وطفق يستعد ليوم رتيب آخر من أيام قصر الخلافة.

وبينما هو كذلك إذا بمسرور الخادم يطرق الباب طرْقاً عنيفاً، كاد أن يخلع قلبه قبل أن يقتلع باب داره. نظر إلى شعره الأصهب المسترسل ووجهه الحاد ذي السحنة البيضاء، الذي يبعث على الرعب والقلق، فلماذا يدعى مسروراً إذن؟ عجباً لهذه الأسماء، نسميها لتهبنا شيئاً من صفاتها، وإذا نحن من يضي عليها معانيها. لم يمهل مسرور حتى يسترسل في تأمله، بل نهره بلهجة حازمة: أجب أمير المؤمنين.

(١) جبريل بن بختيشوع طبيب سرياني من أسرة اشتهرت بالطب والحكمة كان مقدما عند هارون الرشيد وعند ولده المأمون، توفي سنة ٢١٣هـ.

انطلق مسرعاً لا يلوي على شيء، فهذه أول مرة يستدعيه الخليفة بهذه الطريقة، ولا بد أن ثمت خطباً قد ألم، أو أن عارضاً قد أصاب أمير المؤمنين. دخل الإيوان وإذا بالرشيد قد أدخل نفسه من الناس، وهو واجم مطرق لا يتكلم، يكاد يموت غمًا وهمًا. سلم عليه فلم يكذ يرفع طرفه إليه. دارت الدنيا برأس جبريل وخطر له ألف خاطر حتى ظن بنفسه الظنون، فما أكثر الوشاة، وكل ذي نعمة محسود.

لبث على هذه الحال ملياً، وهو واقف بين يدي الرشيد، ثم تشجع وقال: ياسيدي، جعلني الله فداك، ما حالك هكذا؟ أبك علة فأخبرني عنها، فلعله يكون لدي دواؤها، أو مصيبة في بعض من تحب، فذلك ما لا يدفع، ولا حيلة فيه إلا بالتسليم، والغم لا طائل من ورائه، أو لعله قد ورد عليك خلل في ملكك، فلم تخل الملوك من ذلك، وأنا أولى من أفضيت له بالخبر، وتروحت إليه بالمشورة. التفت إليه الرشيد، ثم قال: ويحك يا جبريل! ليس بي شيء مما ذكرت، وإنما رؤيا رأيتها في ليلتي هذه، قد ملأت صدري رعباً وفزعاً.

دنا منه جبريل فقبل قدمه، وقال: فرجت عني يا أمير المؤمنين، إنما الرؤيا تكون من خاطر أو غيره، وإنما هي أضغاث أحلام، فقصها عليّ جعلني الله فداك. قال الرشيد: رأيت أنني جالس على سريري هذا، إذ خرجت من تحتي يد أعرفها، وفي كفها

تربة حمراء، فقال لي قائل، أسمع صوته ولا أراه: هذه التربة التي تدفن فيها! يكررها ثلاث مرات. ثم غابت الكف وانقطع الصوت، وانتبهت من النوم. وأنا فزع مرعوب.

فقال جبريل: ياسيدي، هذه والله رؤيا بعيدة ملتبسة، وأحسبك قد أخذت مضجعتك، ففكرت في إحدى النواحي التي انتقضت عليك، فخالط منامك شيء من الهم، وتولدت هذه الرؤيا، فلا تحفل بها وأتبع هذا الغم سرورًا يخرجك من قلبك. فما برح يطيب نفسه بضروب الحيل، حتى سلا وانبسط ونسي الرؤيا.

رجع جبريل بن بختيشوع إلى بيته، وهو يفكر برؤيا الرشيد، لقد كان يدرك منذ أن طرقت سمعه لأول وهلة: أنها رؤيا حق، وإنما أراد أن يسلي أمير المؤمنين ويطيب خاطره. يد معروفة وصوت مجهول يشير إلى تربة حمراء ليست من جنس التربة المعهودة في الرقة ذات التربة البيضاء! ما هذه بحديث نفس، وليست بأضغاث أحلام!

عجبًا لأمر هذه الرؤى! كيف تسبر أغوار المستقبل، وتقوص في أعماق الماضي، وكأنما هي نوافذ تفتحها الروح، لتبصر من خلالها ما لا تدركه حواس الجسد. أن الرؤى في حقيقتها ما هي إلا حاسة من حواس الروح، تستشرف من خلالها المستقبل، وتعيد قراءة الماضي لتودعها في ذاكرة الحاضر على هيئة دلالات ورموز.

وبالمقابل فإن تحقق الرؤيا دلالة حسية لعالم المادة على عالم الروح، تحدث لعامة البشر في كل زمان ومكان.

استغرق جبريل في خياله، وهو يحاول فهم آلية الرؤيا الغامضة، النوم يضعف سلطان الجسد على الروح، فينطلق ذلك الكائن اللطيف في عالمه المفارق للمادة، وقد تعلق طرفه السفلي بالجسد، أما طرفه الأعلى فيرقى إلى عالم الأرواح، ويكون صعوده بحسب قوة الروح وجودة حواسها، وكما تخطئ حواس الجسد قد تخطئ حواس الروح، ومن هنا يأتي صدق الرؤيا أو كذبها. ثم يأتي من بعد ذلك مرحلة نقل الرؤيا من عالم الروح إلى عالم المادة، وهي مرحلة دقيقة تحتاج إلى وسيط يترجم رؤية الروح إلى لغة الجسد، ويختار الرموز المناسبة التي تساعد المعبر والرائي على فك شفراتها.

أحس جبريل بنشوة تسري في جسده، بعد أن توصل لهذه الآلية المقنعة إلى حد ما، نسي في غمرتها كآبته المزمنة، التي نتجت بسبب سجنه المخملي في قصر الخليفة وموكبه. تسلل النوم سريعاً إلى عينيه ليقطع عليه نشوة هذا الكشف الفكري، الذي هداه إليه عقله.

مرت الأيام رتيبة متطاولة على الطبيب الفيلسوف، نسي فيها الرؤيا وحديث الروح في غمرة انشغاله بتدبير أمر الخليفة.

كان أكثر ما يثير قلقه هو نمط حياة الخليفة البطين، الذي جاوز الأربعين بأشهر قليلة، فهو مبالغ في كل شيء، إن صام لم يكد يفطر، وإذا أكل لم يكد يشبع، بل حتى رضاه وغضبه وهزله وجدته ليس لأي منها حد.

لم يدع وسيلة من وسائل الإقناع إلا اتبعها، ولا ضرباً من ضروب الحيل إلا احتاله دون أن يجد ذلك نفعاً، حتى حدث ما كان يخشاه ويحذر منه.

غشي على الخليفة بعد الغداء حتى ظن الجند به الظنون، وأسرع الأمين والمأمون بنفسيهما لإحضار الطبيب. قدم جبريل على عجل، فجس نبضه وطمأن الجميع، ثم أمر بفصده في الحال. لم يلبث الخليفة بعدها طويلاً حتى أفاق من غيبوبته، واستعاد نشاطه وحيويته.

ارتفع قدر جبريل بعدها في عين الرشيد، وخطى به الحظ خطوة واسعة، عندما أتحت له فرصة الالتقاء بالأُميرين الشابين. رجع هارون الرشيد إلى بغداد مرة أخرى، وترك الرقة لتعود هادئة وادعة، فلا صخب مواكب ولا جلبة جيوش، بل حتى التاريخ توقف عن الكتابة عنها! تتابعت الأحداث في بغداد من غزو نقفور وإجباره على دفع الجزية صاغراً، ثم خروج الوليد بن طريف

الشاري وقتله^(١) إلى نكبة البرامكة. كل هذا والرشيد يعد لكل شئ عدته، ويلبس لكل حالة لبوسها.

خرج رافع بن ليث^(٢) في سمرقند، واستفحل أمره بعد أن كسر قواد الرشيد واحداً تلو الآخر، فقرر الخليفة الخروج بنفسه. اعترض الطبيب جبريل على خروجه بشدة، فالشقة بعيدة، وصحة الخليفة ليست على ما يرام، لا سيما وقد شارف على الخمسين، وهو بين إفراط في الصوم أو إسراف في الأكل.

ضاق الرشيد ذرعاً باعتراض طبيبه، الذي لا يقدر الموقف حق قدره، فرافع هو حفيد نصر بن سيار القائد الأموي العظيم، الذي أخرج قيام دولة بني العباس في خراسان عشر سنين، ثم هو في بلاد ما وراء النهر، وهي معقل حصين لكل متمرّد على سلطة المركز، وقد استغلها بنو العباس من قبل إبان ثورتهم على بني أمية.

خرج الرشيد مغاضباً لطبيبه وأمر بجعله في أخريات الجيش واستدعى طبيباً فارسياً ليكون بحضرته. فلما كان بالنهروان ابتدأ

(١) أمير عربي خرج على هارون الرشيد بنواحي الموصل، واستفحل أمره فبعث إليه يزيد بن مزيد الشيباني فقتله. رثته أخته الفارعة بقصيدة رائعة:

فيا شجر الخابور مالك مورقا كأنك لم تجزع على ابن طريف
فتى لا يريد الزاد إلا من التقى ولا المال إلا من قنى وسيوف
حليف الندى ما عاش يرضى به الندى فإن مات لا يرضى الندى بحليف

(٢) رافع بن ليث الكناني من بيت إمارة ورتاسة، خرج على الرشيد، وهزم نوابه على خراسان، ثم قتله المأمون سنة ١٩٥ هـ.

به وجع بطنه، فكان يخفيه حتى عن خاصته، ويعصب عليه عصابة تخفف عنه الألم، ولسان حاله يقول:

وتجلدي للشامتين أريهم أني لريب الدهر لا أتضعع^(١)

فلما وصل طوس^(٢) اشتدت به العلة، وضعف عن المسير، فأقام فيها يمرض في بستان هناك. وعبثاً حاول الطبيب الفارسي علاجه، فلم يقدر على ذلك، فاستدعى الرشيد مسروراً الخادم، وأعطاه ماءه في قارورة، وقال له: اذهب به إلى جبريل، وقل له هذا: بول رجل اطلبه مألأ وهو مريض، فإن كان به رجاء تركت مالي عنده، وإلا استعدت ديني.

نظر الطبيب جبريل في بول الرشيد وفحصه بتمعن، ثم قال: يا مسرور إن كنت تريد مالك فخذ الآن، فهذا بول رجل لا يعيش ثلاثة أيام.

رجع مسرور إلى الرشيد فأخبره بالخبر، فاسترجع وبكى، ثم استدعى جبريل وألح عليه في إيجاد علاج نافع له، فلم يقدر، وقال له: كنت نهيتك عن هذا الخروج، وطلبت منك العودة لبلدك بسبب المناخ الذي لا يوافقك.

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي، انظر: المفضليات (ص ٢٢؛).

(٢) مدينة أثرية، كانت من أعمار مدن خراسان وأجملها، حتى هدمها المغول قرابة سنة ٦٢٠ للهجرة، وتقع حالياً في إحدى ضواحي مدينة مشهد شمال غربي إيران.

ثم دعا مسروراً الخادم، وقال له: ائتني بشيء من تربة هذه الأرض. فجاء حاسراً عن ذراعه، وفي كفه تربة حمراء، فلما رآها ذكر رؤياه بالرقعة، فهاله ذلك، وقال: ويحك يا جبريل هذه والله الكف التي رأيت، والتربة الحمراء التي رأيت.

أشاح الرشيد بوجهه، وأمر بحفر قبره في الدار التي هو فيها، ثم أمرهم أن يقرأوا القراءن في قبره، فقرأوه حتى ختموه، فجعل ينظر إلى قبره، ويقول: اللهم انفعنا بالإحسان، وتجاوز عنا الإساءة، يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه. ثم مات بعدها بثلاث ليال.



ب: تحقيق سبب الوفاة

مما سبق يتضح أن سبب وفاة هارون الرشيد هو الحمض السكري الكيتوني (Diabetic Ketoacidosis) وهي إحدى المضاعفات الخطرة لمرض السكر، وتحدث عند نقص الإنسولين في الجسم، وعدم قدرة العضلات على الاستفادة من سكر الجلوكوز في الدم، فتضطر إلى حرق الدهون المخزنة لاستخدامها، بوصفها مصدرًا بديلاً للطاقة. لكن هذه العملية تؤدي إلى تراكم أحماض سامة في الدم، تدعى الكيتونات، تزيد من حموضة الدم، وتؤدي إلى الوفاة سريعاً في حال عدم العلاج.

وغالباً ما تبدأ أعراض الحمض السكري الكيتوني على هيئة ألم حاد في البطن وعطش شديد يرافقه تبول كثير مع وهن عام في الجسم. وتكون رائحة البول مميزة وحادة بسبب وجود أحماض الكيتونات، ومن هنا عرف الطبيب جبريل ابن بختيشوع أن مرض الرشيد لا يمكن شفاؤه، عندما شم رائحة الكيتونات.

وثمت تطابق واضح بين أعراض مرض الحمض السكري الكيتوني والأعراض الصحية التي ذكرت في الروايات التاريخية،

كرواية السيوطي في تاريخ الخلفاء^(١)، عن سبب موت هارون الرشيد رَحِمَهُ اللهُ. وبالإضافة إلى ذلك، فسيرة الرشيد وما روي عن نمط حياته، يدل دلالة واضحة على أنه كان مصاباً بالسكر، وذلك وفقاً للشواهد التالية:

أولاً: ما رواه ابن أبي أصيبعة في كتابه (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) بسنده إلى جبريل بن بختيشوع، قال: «كنت مع الرشيد بالرقعة، ومعه المأمون ومحمد الأمين ولداه، وكان رجلاً بادناً كثير الأكل والشرب، فأكل في بعض الأيام أشياء خلط فيها، فغشي عليه»^(٢)، ثم أمر بفصده وحجامته، فأفاق من ساعته. ويغلب على الظن أن هذه الغيبوبة ناتجة من ارتفاع السكر في الدم، بدليل حدوثها بعد الأكل الكثير، واستجابتها للفصد والحجامة. والفصد هو إخراج الدم من الشريان، ومفعوله أسرع من الحجامة لكثرة ما ينزف من الدم.

ثانياً: في خبر آخر ساقه ابن أبي أصيبعة عن جبريل: أنه أنكر قلة أكل الرشيد سنة ١٨٧ للهجرة، وفي آخره قال الرشيد: «إنما أكل الشيء بعد الشيء لتئلاً يثقل الطعام عليَّ فيمرضني»^(٣)، وفي هذا دلالة واضحة على إصابته بمرض السكر، ولولا ذلك لم

(١) تاريخ الخلفاء، للسيوطي (ص ٤٦٣).

(٢) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ابن أبي أصيبعة (ص ١٤٨).

(٣) نفس المصدر السابق (ص ١٥٠).

يمرضه الطعام وهو في الأربعين من عمره. ولعل هذا من أسباب كثرة صيامه رَحْمَةُ اللَّهِ.

ثالثاً: ما يروى عن نمط حياة الرشيد حال غضبه وحال سروره، وما ذكره طبيبه عن إسرافه في مأكله ومشربه بالإضافة إلى بدانته المفرطة، وكل هذا يجعل احتمال إصابته بالسكر عالياً جداً.

ومما قد يستدل به على ذلك أنه توقف عن رحلات الحج والغزو منذ سنة ١٨٨ للهجرة، أي قبل ٥ سنوات من رحلته الأخيرة، ولعل هذا يعود لما يعانيه من مرض السكر في أثناء سفره، ولهذا اعترض طبيبه على رحلته الأخيرة، مع أهميتها القصوى في تثبيت دعائم ملكه.

رابعاً: لا شك أن أقوى الأدلة على الإطلاق هو فحص البول، الذي قام به الطبيب جبريل، واستدل به على قرب موت هارون الرشيد. وهذا الإجراء كان معروفاً عند الأطباء قديماً، حيث يستدل الطبيب على صحة المريض عن طريق معرفة خصائص البول. ولا يزال من الفحوصات المهمة إلى اليوم في تشخيص العديد من الأمراض، ومن بينها مرض السكر.

وهنا ينبغي أن أشير إلى رأي فيه شيء من الغرابة، ذكره شوقي أبو خليل في كتابه (هارون الرشيد أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا)، عندما تساءل عن سبب موت هارون الرشيد، ورجح أن يكون مؤامرة، انتهت بأن دس جبريل له السم بتحريض من جعفر البرمكي!

وبنى هذا الرأي على حسن علاقة جبريل بن بختيشوع مع البرامكة، وعلى ما ذكره الطبيب الفارسي أن سبب مرض الرشيد هو غلطة جبريل بن بختيشوع. وبناءً على هذا الرأي أنكروا جميع الروايات الأخرى، التي أشارت إلى مرض الرشيد وهو في الطريق.

وهذا الرأي ضعيف جداً، لأن أعراض السم معروفة عند عامة الناس قديماً وحديثاً، ولو حصل ذلك لما ترك جبريل ولأخذه الأمين أو المأمون بجريرتيه، كيف وقد حظي عندهما جميعاً. ولم تشر أي رواية من الروايات التاريخية إلى السم، أما ما ذكره الطبيب الفارسي فهو أمر مبهم، لا يعدو أن يكون من كلام الأقران في بعضهم البعض. وأما الاستناد إلى حسن علاقته مع البرامكة فهذا عجيب جداً، إذ علاقة البرامكة مع عليّة القوم وعامتهم، بل حتى مع الرشيد نفسه، كانت حسنة جداً قبل أن يتغير عليهم وينكل بهم.

وختاماً: فإن توافر الروايات التاريخية بشكل وصفاً دقيقاً للتاريخ المرضي، بينما فحص البول بشكل فحصاً أساسياً للمرض، مما يؤكد أن سبب وفاة الرشيد رَحِمَهُ اللهُ هو الحماض السكري الكيتوني كأحد مضاعفات مرض السكر^(١).

(١) من باب الأمانة العلمية، فقد استندت هذه المعلومة أول مرة من أستاذي الدكتور خالد الربيعان في أثناء محاضرة له في كلية الطب.

ج: إضاءات طبية⁽¹⁾

الحماض الكيتوني السكري (Diabetic Ketoacidosis) هو أحد المضاعفات الخطيرة لمرض السكر، تحدث بسبب النقص الحاد في الإنسولين في الجسم. وهو أحد المضاعفات المرتبطة بالنمط الأول من مرض السكر، وقد تحدث في النمط الثاني في حالات معينة كالعدوى الرئوية أو عدوى المسالك أو عند الإرهاق البدني الشديد.

وتبدأ الأعراض عادة بالشعور بالغثيان والتقيؤ، وقد يصاحبها ألم بطني حاد عند بعض المرضى. ومع تطور الحالة الصحية يزداد النفس عمقاً، ويكون مجهداً، وتتغير رائحته إلى ما يشبه رائحة الفواكه بسبب زيادة تركيز الأسيتون في الدم. ينخفض بعدها مستوى الوعي مما يؤدي إلى الغيبوبة والوفاة في حالة عدم العلاج. مما يجدر ذكره أن هذا المرض كان مرضاً قاتلاً قبل اكتشاف الإنسولين الصناعي، واستخدامه في علاج مرضى السكر سنة ١٩٢١ للميلاد. أما اليوم فنسبة الوفاة منه أقل من ١٪ نظراً لسهولة التشخيص ووجود العلاج الفعال في أغلب المراكز الطبية.

(1) Kumar & Clark: Clinical Medicine (page: 10881092-)

تشخيص المرض: بالإضافة إلى الأعراض السريرية المذكورة أنفاً، يتم تشخيص مرض الحمض السكري الكيتوني (DKA) عن طريق تحليل السكر في الدم، والذي قد يصل إلى مستويات عالية جداً (< 600 مغ/ دسل). ويتم التأكد من التشخيص بعد اكتشاف الكيتونات في الدم والبول مع زيادة حمضية الدم.

علاج المرض: يُعدُّ الحمض السكري الكيتوني حالة طارئة تستدعي تدخلاً طبياً سريعاً عن طريق تعويض نقص السوائل والأملاح والعلاج الهرموني بالإنسولين. وقد تتطلب إعطاء البيكربونات لتخفيف حموضة الدم. ومن المهم بعد ذلك علاج المسببات لهذا المرض كالعدوى وغيرها.

نصائح طبية: يجب أولاً الحرص على أن يكون نمط الحياة صحياً باتباع نظام غذائي ورياضي سليم مع المحافظة على وزن مناسب، والبعد عن كل ما يثير القلق والغضب، لأجل تجنب الإصابة بمرض السكر.

ولكي يتم ذلك لا بد لكل من جاوز الخامسة والثلاثين أن يمارس نشاطاً بدنياً معتدل الكثافة كالمشي السريع لمدة نصف ساعة - على الأقل - بمعدل أربع مرات أسبوعياً.

وبالإضافة إلى ذلك لا بد أن تقتصر إحدى الوجبات الرئيسية على الفاكهة والخضروات فقط، ولا يخلط معها أي مصدر

للكربوهيدرات أو الدهون سوى زيت الزيتون. وهذه الوجبة مع فائدها الغذائية العالية المتمثلة في بعض الفيتامينات والعناصر التي لا تتوفر فيما عداها، إلا أن هدفها الأساسي هو القضاء على الإمساك وإراحة الأمعاء من تراكم سموم الفضلات فيها.

وفي حالة الإصابة بمرض السكر يجب الحرص على اتباع إرشادات الطبيب خصوصاً ما يتعلق بالنظام الغذائي ونمط الحياة الصحي وعدم إهمال العلاج. كما ينبغي العلم أن التعامل الصحي مع السكر يقي بإذن الله من جميع مضاعفاته الشائعة، أما عند الإهمال وعدم المبالاة، فإن السكر يكون مقدمة لأمراض عديدة، تصيب كافة أعضاء الجسم، ولذا يسمى «أبو الأمراض»^(١).

ومن الضروري كذلك معرفة أعراض جميع المضاعفات الخطيرة لمرض السكر، خصوصاً أعراض الحماض الكيتوني السكري، لأن نسبة التماثل للشفاء تعتمد على سرعة تشخيص المرض وعلاجه.

مما يجدر ذكره أن سكر الأطفال أو النمط الأول من مرض السكر قد يأتي على هيئة حماض كيتوني سكري بسبب النقص الحاد والمفاجئ في نسبة الإنسولين في الدم، ولذا ينبغي الاحتياط وعدم إهمال الأعراض الأولية للمرض.

(١) رفعت هنا على الحكاية، والجملة في محل نصب.

د: تعبير الرؤى^(١)

الرؤيا الصالحة إحدى عجائب الدنيا، لأنها قد تكشف غيباً لم يخطر ببال أحد، وقد تبرز شيئاً لم تنتهياً أسبابه بعد. وهي أمر تعجز المادة عن تفسيره، ولا تستطيع إنكاره، فهو من أقوى الدلائل على عالم الروح الذي أنكره الماديون بحجة أنه غير قابل للتجربة العلمية، التي تختبر فيها صحة الفرضيات، وتخضع فيها المتغيرات لشروط مسبقة يتحكم فيها الباحث. وفي هذه الحجة تعسف واضح وقصور شديد، لأنها تفرض قوانين المادة على شيء يفارقها، ويخالف نواميسها، وهو ما أشار الله عزَّجَلَّ إليه ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

وقد تعلق الناس بالرؤى على مختلف طبقاتهم حتى غدا تعبير الرؤى سوقاً رائجاً ووسيلة سريعة للشهرة والثراء، فقصده من لا يحسنه، وصد صدمه من لا يفهمه، فالتبس على الناس الأمر، وعز عليهم التفريق بين العالم والمتعال. والحق أن التفريق بينهما عسير جداً، لأن تحقق الرؤيا لا يعتمد على جودة التعبير فقط، بل يقوم على صدق الرؤيا وصدق الرائي ومدى دقة نقل الرؤيا للمعبر.

(١) للاستزادة انظر: الرؤى عند أهل السنة والجماعة والمحدثين والمخالفين، تأليف:

د. سهل العتيبي. والكتاب عبارة عن رسالة ماجستير رصينة.

وثمت قاعدتان ذهبيتان لمن أراد التفريق بين المعبر الجيد

ومن سواه:

أولاً: تعبير الرؤى علم دلالة وليس وحياً أو إلهاماً، بل لا بد من وجود قرينة تربط بين الرمز المضروب في الرؤيا وبين تأويل المعبر، وللرائي أن يسأل المعبر عن القرينة التي استدل بها في تعبيره كي يتضح له وجه التأويل، ويتحقق من جودة تعبير رؤياه.

تأمل معي بعضاً من الرؤى المذكورة في القرآن تجد الأمر بيئاً واضحاً، فالشمس في رؤيا يوسف كانت أباه يعقوب عليهما السلام لأنه نبي يشع ضوء هدايته على الأرض، أما القمر فكانت أمه -زوجة يعقوب- فهي أول من استفاد من ضوء هداية النبي وبلغها، تماماً كما يفعل القمر مع ضوء الشمس. وهذا الأمر ينطبق على إخوته الأحد عشر، فهم كواكب وليسوا نجومًا، إذ لم يكونوا أنبياء حال حدوث الرؤيا ولا حال تحققها.

وتأمل معي في رؤيا الملك في سورة يوسف، يستبين لك القصد، فالبقرة السمينة سنة خصبة، والبقرة العجفاء سنة مجدبة، ثم تأمل كيف تأكل البقرة العجفاء البقرة السمينة، كما يضطر الناس في السنة المجدبة إلى أكل محصول السنة الخصبة وهكذا.

وهذا أمر مطرد في جميع الرؤى المذكورة في القرآن والسنة وعبر

التاريخ. وسيأتي الحديث عن رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب رَضِيَ اللهُ عَنْهَا

يوم بدر، وما فيها من دلالة عجيبة. وفقه القرينة أمر تتفاوت فيه أفهام المعبرين بحسب تضلعهم من علوم القرآن والسنة وعلوم اللغة، وبحسب ذكائهم وقدرتهم على الربط والتحليل. ورحم الله أبا الطيب حين لخص هذا بيت واحد:

ولكن تأخذ الأفهام منه على قدر القرينة والعلوم

ثانياً: لا يمكن تأويل جميع الرؤى، إذ قد تكون القرينة بعيدة تستعصي على فهم المعبر، ولا تعرف حتى تتحقق الرؤيا، وقد يخفى على المعبر شيئاً من أحوال الرائي تشير إليه الرؤيا من طرف خفي، فيعجز عن فهم القرينة. وهنا يبين الفرق بين عالم يعرف حدود علمه، ومتعالم يخوض غمار بحر لا يحسن الوقوف على ساحله، فيتصدى لكل رؤيا يفسرها، وربما فسر أضغاث الأحلام وحديث النفس أيضاً!

وخلاصة الأمر في هذا المقام: أن من تصدى لتفسير جميع الرؤى، ولم يبين وجه القرينة عند السؤال عنها، كمن يفتي في جميع مسائل الفقه، ويعجز عن الإتيان بالدليل، والله أعلم.



الفصل الثاني
زائرة المتبني

أ: قصة المتنبّي^(١)

محلة كندة بظاهر الكوفة.. حيث يقف الصبي الهزيل أحمد منزوياً عن بقية الصبية، الذين يلعبون في عرض الطريق. يخيل إليك أن السبب وراء انفراده هو خجله من شملته البالية أو من قدمه الحافية، وليس الأمر كذلك، فهذا شأن أغلب من يسكن هذه المحلة البائسة، وإنما السبب هو سخرية الصبية المتواصلة من والده «السقاء عيدان». ما أن يجتمع شملهم حتى تبدأ المسرحية الساخرة. يعرض أشقاهم على متنه عوداً طويلاً يعلق في طرفيه إناءً عتيقاً، ثم يدور على الصبية: ماء.. ماء (يمد بها صوته)، تتعالى ضحكاتهم، ويستخفهم المرح، وربما استطلوا على ذلك الصبي الجاد، الذي لا يشاركونهم لهو الطفولة.

أنه مختلف عنهم وكفى. وهذا وحده كاف، لأن تتاله الألسن وربما الأيدي. لا يعني الأطفال بعد ذلك أكان ابن سقاء أم ابن حجام، ولكنها سجية الأطفال التي سرعان ما يتذكرها الكبار إذا رأوا من يتميز عنهم ويتفوق عليهم. إن ذنب الناجح عظيم، فهو يذكر الفاشل بفشله والمقصر بتقصيره، فلا يجب أن يتأوه إذا اعتورته النصال، وناشته أطراف القنى.

(١) للاستزادة، انظر: شرح ديوان أبي الطيب، للبرقوقي، وإمبراطور الشعراء، للقرني.

إنك مهما نبا نظرك عن أحمد، وازورّت عنه عيناك لراثته
 وشعته، فلا بد أن تلمح في عينيه نظرة غامضة، بعيدة الهدف حتى
 ليخيل إليك أن بصره قد جاوز محلته المتواضعة، وتعلق بأستار الأفق.
 إن قسامات وجهه الحادة، حتى وإن سفعها الفقر، لتلوح منها
 مخايل النجابة وأمارات النبوغ.

أقبل عيدان السقاء تسبقه جلجلة أواني الماء، والبشر يعلو
 محياهم، فقد زادت غلته اليوم عن ثلاثة دراهم. أنزل الأواني من
 على ظهره، وأخرج الدراهم يتفحصها، وأحمد مطرق واجم،
 ولسان حاله يقول: يا أبت لطالما ألمني فقرك وازدراء الناس لك،
 ولكن أكثر ما يغيظني هو رضاك بشظف عيشك، وقناعتك بالنزر
 القليل الذي تحصل عليه من كد ظهرك وسعي قدمك.

لم يجرؤ أحمد على قول هذا الكلام لإبيه، ولو مرة واحدة،
 ليقينه ألا طائل من ورائه، فبينهما ما بين همة الفتى الطموح وهمة
 الشيخ العليل من بون وتفاوت، وسبحان الذي يخرج الحي من الميت.
 اشتدت نقمة أحمد، وزادت سخريته المكتومة من وضع عائلته
 القاتم، ولم يكن يسليه في تلك الأثناء سوى حديث جدته المتكرر عن
 طيب نسبها وكرم محتدها. ومع أن كلامها في نظر أهل البيت لا يعدو
 كونه ثرثرة ضرب الزمن عليها بجرانه، إلا أن الصبي كان يصغي
 إليها بكل جوارحه، وربما استعادها القصة تلو القصة، فتقول: اعلم

يابني أني من قبيلة همدان، تلك القبيلة العريقة، التي خرج منها
كثير من أقيال^(١) اليمن، وفيها قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

ولما رأيت الخيل تضرب بالقنا فوارسها حمر العيون دوامي
تيممت همدان الذي همُّهم إذا ناب أمر جنتي و حسامي
ولو كنت بواباً على باب جنة لقلت لهمدان ادخلوا بسلامي

وما ذاك إلا لعظم بلائهم في الحرب، وكرم أحسابهم وعلو
همتهم.

أما أنت يا بني فإنك من سعد العشيرة. أتدري لم سمي بهذا
الاسم؟ لقد طال عمر سعد وكثر أبناؤه وأحفاده، حتى بلغوا ثلاث
مئة رجل، فكان إذا ركب فيهم سئل عنهم، فيقول: «هم عشيرتي»
مخافة الحسد. يابني: لقد سأل عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عمرو بن معدي كرب
الزبيدي^(٢) عن سعد العشيرة فقال: أعظمنا خميساً، وأكبرنا
رئيساً^(٣). ويعني أنهم قد جمعوا بين الكثرة والرئاسة والشدّة.

(١) أقيال: جمع قيل وهو الملك.

(٢) عمرو بن معدي كرب الزبيدي فارس العرب، وصاحب الصمصامة، وهي أشهر سيوف
العرب. شارك في فتوح العراق وأبلى بلاءً عظيماً في القادسية ونهاوند، ومات في سنة
٢١ للهجرة. وعمرو شاعر مجيد، وهو صاحب البيت الشهير:

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

(٣) الخميس: الجيش العظيم، وسمي خميساً، لأنه يقسم عادة إلى خمس فرق: المقدمة،
واليمين، والميسرة، والقلب، والساقة، وهي مؤخرة الجيش.

استطردت الجدة قائلة: فما زال الزمن يدور حتى قلب لنا ظهر
المجنّ، فلم تعد تعني أحسابنا للترك والفرس شيئاً، بل أصبحت
إرثاً ثقيلاً، تزرع به كواهلنا حين رقت حالنا. يا بني لقد تناولوا
على الخليفة، فسلموا عينه، وألقوه للسابلة، يستسقيهم الماء فلا
يسقيه أحد، أفتراهم يعبأون بنا بعد ذلك؟

في هذا الجو المفعم بالمتناقضات نشأ المتبني وترعرع، نابغة
عبقري، قد علقت نفسه بما فوق النجوم، يدرج في بيت قد أنشبت
الفقر أنيابه ومخالبه الغائرة في أهله، حتى كسر أنفسهم، وأراق
ماء محياهم، حسب زاكٍ قديم قد حال دونه نسب وضيع وحال
رقيق، هوى بهم إلى أسفل طبقات المجتمع، حتى أصبحوا مثاراً
للسخرية والتندر.

إن أي نابغة ينشأ في ظرف كهذا، ستدور حياته حتماً بين ثلاث
عقد: عقدة الفقر، وعقدة الاحتقار، ثم عقدة التسلط.

وما أن يشب عن الطوق، ويملك زمام نفسه، حتى يسعى في
طلب المال من كل وجه، فإذا ملك شيئاً من مال استيقظت عقدة
الاحتقار في نفسه، فقام يطلب التقدير، ويبحث عن الشهرة
والإثارة، فإذا حصل على شئ من ذلك سمت نفسه للولاية، وحركه
حب السلطة.

ولا يميز معدنه وتعرف شمائله حتى يتولى شيئاً من الولايات،
فإن كان كريم النفس، طيب الروح، قال مثل قول أم حاتم الطائي
عندما حبسها إختوتها، لكي تضن بشيء من مالها، وتدخره
لنوائب الدهر:

لعمري لقد ما عضني الجوع عضه

فأليت ألا أمنع الدهر جائعاً^(١)

وإن كان حقوداً لئيماً فعل مثل فعل الحجاج في أهل العراق^(٢).

ولو تأملت سيرة أبي الطيب المتنبى لوجدت أثر هذه «المتلازمة»
بيناً واضحاً في حياته. فهو يكون أشد زئيراً عندما تجتمع عليه عقده
الثلاث في آن معاً، ويخف صراخه كلما حلت عقدة من هذه العقد،
حتى يتحول إلى ما يشبه الأنين الخافت عند حل العقدتين الأوليين.
بل إن كثيراً من تجليات الحكمة عند أبي الطيب ما هي إلا
رجع صدئ لهذه المتلازمة:

وأتعب خلق الله من زادهم

له وقصر عما تشتهي النفس وجده

(١) الشعر والشعراء (٢٤٢/١).

(٢) روى ابن كثير في البداية والنهاية (٥٢٥/١٢): أن عبد الملك بن مروان قال للحجاج: إنه
ما من أحد إلا وهو يعرف عيب نفسه، فصف لي عيبك. فقال: إنني لجوج حقود حسود.
فقال عبد الملك: ما في الشيطان شر من ذلك!

وفي الناس من يرضى بميسور عيشه
ومركوبه رجلاه والثوب جلده
ولكن قلبا بين جنبي مال
له مدى ينتهي بي في مراد أحده

خرج أبو الطيب من مراتع الصبا إلى الشام، وقد اجتمعت
عليه أعراض المتلازمة كلها، فجعل يزأر زئيراً يصم أذان الزمن.
ولكأنني به جائع فقير، قد ألجأه البرد إلى خان مهجور، وهو يقول:

أي محل أرتقي	أي عظيم أتقي
وكل ما خلق الله	وما لم يخلق
محتقر في همتي	كشعرة في مفرقي

فلما طلع عليه الصبح خرج ينفذ عن جنبه الغبار، ويقول:
ما مقامي بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود
أنا في أمة تداركها الله غريب كصالح في ثمود

ثم مضى في طريقه، وهو يسأل نفسه أي الولايات أعظم قدرًا
وأجل خطرًا؟ الملك؟ فما أكثر الملوك! أم الخلافة؟ فثم خليفتان! لا
بد أنها النبوة إذن! فلتكن! فهي حتمًا ستلفت أنظار الملوك فضلًا
عن العامة، وسينسى الناس في غمرة ذلك ما كان فيه من نسب
وضيع وحال رقيق.

دارت به أيامه بين سجن وحل وترحال، حتى نزل الشام فوجد
الفرصة سانحة لحل العقدة الأولى: جمع المال، فأقبل يمدح كل من
ظن أن عنده نوالاً، حتى لو كان نزرًا قليلاً. قدم على محمد بن
زريق^(١)، فمدحه بقصيدة لم يدع فتناً من فنون المبالغة إلا سلكه:

بشر تصور غاية في آية تنفي الظنون وتفسد التقييسا
يا من نلوذ من الزمان بظله أبدأ ونطرد باسمه إبليسا

فوصله بعشرة دراهم، فقيل له: إن شعره حسن. فقال: والله
ما أدري أحسن هو أم قبيح! ولكن أزيده لأجل قولك هذا عشرة
دراهم أخرى!

قد يتسائل المرء: كيف رضي أبو الطيب المتنبّي بمدح أمثال
هؤلاء، وهو آية في الاعتداد بنفسه واحتقار غيره؟ وفي الحقيقة
إن هذا دأب من يعاني من هذه المتلازمة، ولنسمها إذن متلازمة
المتنبّي (Almutanbi Syndrome)، ما أن ينهمك أحدهم في حل
عقدة من عقده الثلاث، حتى يغفل عن كل ما عداها، وربما أتى
نقيض ما قاله، وهو لا يشعر. حتى إذا انسدت عليه وجوه المطالع،
وأفلس من الحلول كلها عاد زئيره أشد ما كان.

(١) محمد بن زريق الطرسوسي ولي إمارة طرسوس، وهي مدينة سورية على شاطئ البحر
الأبيض المتوسط.

رحل إلى حلب، ولله در حلب، ما صنعت الشهباء بأبي الطيب!
لقد شففته من دائه العضال. حباه أميرها سيف الدولة ما أنساه
فقره، وأعلى مكانته حتى فاءت إليه نفسه، وثاب إليه احترامه
وتقديره، وبقيت واحدة أغناه عنها شخص سيف الدولة، فهو أمير
عربي من بني جلدته، انتزع الولاية ليصد الروم عن بيضة العروبة
والإسلام، وأعاد مآثر أجداده التي كانت تحدثه عنها جدته.

هدأت نائرة المتبني في بلاط سيف الدولة، واستبدل السنان
بالبیان، ورضي بولاية الشعر سمعاً وطاعة لأمر أمير العرب:

شاعر اللفظ خدنه شاعر المجد

د كلانا رب المعاني الدقاق

أقام عنده ثماني حجج يصفيه من غرر القصائد، ومن عيون
الشعر، وينتصف به من زمانه:

في جحفل من حديد لورميت به

صرف الزمان لما دارت دوائر

ولا غرو أن يكثر حساده وشائئوه، وهو المنفرد بحب سيف الدولة
وإيثاره، ولم يكن يعبأ بهم أول الأمر، حتى استطالوا عليه، وسعوا
في إذلاله، وتكلموا عن سرقة الشعر. فاستيقظت عقدة الاحتقار في

نفسه، فعاد يزار زئيراً يمخر عباب الزمن، ويعتد بنفسه اعتداداً لم
يشهد له الشعر نظيراً:

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا
بأنني خير من تسعى به قدم

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي
وأسمعت كلماتي من به صمم

أنام ملء عيوني عن شواردها
ويسهر الخلق جراها ويختصم

الخيال والليل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم

ليس من دأب أمثال أبي الطيب أن يتحملوا إهانة تمس عقدة
من العقد، مهما صغرت في أعين الناس، فقرر الرحيل، والتمس
لنفسه عذراً في غاية الروعة والجمال:

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا
ألا تفارقهم فالراحلون هم

يمم المتنبى شطر مصر، لا يحدوه سوى حب الولاية، ولا يحركه
إلا الرغبة في السلطة، بعد أن تمول وعرف الناس قدره.

وقد يستغرب المرء لأول وهلة كيف يقصد المتنبى - على تعاليه وغروره - مصر، ليمدح كافوراً، وهو رقيق أسود، أعتقه الإخشيد^(١)، فاستولى على مصر بعد وفاة سيده، ودان له أهلها بالطاعة، وسار فيهم سيرة حسنة. ولا وجه للدهشة والاستغراب، فهذا ديدن من يعانون من «متلازمة المتنبى»، ما أن ينهمك أحدهم في محاولة حل عقدة من العقد، حتى ينسى أو يتناسى ما عداها. وفي هذه المرة كان أبو الطيب يفعلها بوعي كامل. ولذا لم تخل قصيدة من قصائده في مدح كافور من لدغة من لدغاته. تأمل في مطلع أولى قصائده:

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا

وحسب المنايا أن يكن أمانيا

أهذا مطلع من يريد المدح أم من يريد النذب والرتاء؟ ولكنها الشاعرية المتناهية، التي تمدح ممدوحها في سبيل غايتها، وتندب صدقها ومبادئها في الوقت ذاته.

لم يكن كافور بأقل من المتنبى دهاءً ومكرًا، بل كان يعلم بما في جنانه من نزعة للسيطرة وحب للولاية، فكان يغدق عليه الأموال، ويماطله الولاية عملاً بقول أبي الطيب نفسه:

(١) هو محمد بن طنج مؤسس الدولة الإخشيدية في مصر والشام، كان في أول أمره والياً للعباسيين على مصر، ثم استقل بها، وصد هجمات الفاطميين عنها، توفي سنة ٣٣٤ هـ، وكان ابنه صغيراً، فخلفه موله كافور، فساس مصر سياسة حسنة، وكان شهماً حسن السيرة.

ولما كان ود الناس خبا

جزيت على ابتسام بابتسام

ركب أبو الطيب الصعب والذلول، لتحقيق أربه ونيل مطلبه، فلم ينل سوى مزيداً من مواعيد كافور، وشيئاً من دنائره. فعمد الى التصريح بعد التلميح:

إذا لم تنط بي ضيعة أو ولاية

فجودك يكسوني وشغلك يسلب

أجابه كافور أجابة من عرف داءه فحرمه دواءه: أنت في حال الفقر وسوء الحال وعدم المعين سمت نفسك للنبوّة، فإن أصبت ولاية وصار لك أتباع فمن يطيقك؟ خرج أبو الطيب من مجلس كافور، وهو يتمتم بأبيات الحطيئة:

لما بدا لي منكم عيب أنفسكم

ولم يكن لجراحي منكم آسي

أزمنت يأساً مبيناً من نوالكم

ولن ترى طارداً للحر كالإياس

أزمت الرحيل، وزمّ ركائبه، وأعد العدة. فبينما هو كذلك، إذ طرقت بابه زائرة غريبة لا تريد سواه. لم يكن في عفة جرير، فيقول

لها: ليس ذا وقت الزيارة، بل فرش لها المطارف والحشايا. ولم تكن في استحياء صائدة القلوب فترجع بسلام، بل تخطت مطارفه وحشاياه إلى عظامه ومفاصله:

وَزَائِرْتِي كَأَنَّ بِهَا حَيَاءٌ	فَلَيْسَ تَزُورُ إِلَّا فِي الظَّلَامِ
بَدَلْتُ لَهَا المَطَارِفَ وَالحَشَايَا	فَعَاثَتْهَا وَبَاتَتْ فِي عِظَامِي
يَضِيقُ الجِلْدُ عَن نَفْسِي وَعَنهَا	فَتَوَسَّعَهُ بِأَنْوَاعِ السَّقَامِ
إِذَا مَا فَارَقْتَنِي غَسَلْتَنِي	كَأَنَّا عَاكِفَانِ عَلَى حَرَامِ
كَأَنَّ الصَّبْحَ يَطْرُدُهَا فَتَجْرِي	مَدَامِعُهَا بِأَرْبَعَةِ سِجَامِ
أَرَاقِبُ وَقَتَهَا مِنْ غَيْرِ شَوْقٍ	مَرَاقِبَةَ المَشُوقِ المُسْتَهَامِ
وَيَصْدُقُ وَعْدُهَا وَالصَّدْقُ شَرٌّ	إِذَا أَلْقَاكَ فِي الكُرْبِ العِظَامِ
أَبْنَتِ الدَّهْرِ عِنْدِي كُلُّ بِنْتٍ	فَكَيْفَ وَصَلْتِ أَنْتِ مِنَ الرِّحَامِ
جَرَحَتْ مُجْرَحًا لَمْ يَبْقَ فِيهِ	مَكَانٌ لِلسَّيُوفِ وَلَا السَّهَامِ

لم يستطع أبو الطيب فراق مصر، وأقام فيها رغباً عنه، فعيون كافور تحرسه نهائراً، وزائرته الحبيبة تعكف على وصاله كل ليلة.

فلما شفت نفسها منه وأبل^(١) هو منها طفق يعد عدة الخروج في لطف ورفق، وهو يظهر الرغبة في المقام.

(١) أبل الرجل من العلة إذا شفي منها.

فلما تكاملت أهبتها، وتجهز بجهازه، خرج من مصر يستره
جنح الليل، وتخب به المطي، ويا له من خروج!

كان من سوء طالع كافور أن اعتلج في قلب المتنبّي وقت خروجه
من مصر ثلاثة لواعج: حزن في يوم عيد، وخوف من عدو حقير،
وخيبة أمل مريرة، لينشد قصيدته الخالدة، التي رواها لسان
الدهر، ورددها فم الزمان:

عيد بأية حال عدت يا عيد
بما مضى أم لأمر فيك تجديد
أما الأحبة فالبيداء دونهم
فليت دونك بيذا دونها بيد
لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي
شيئاً تميمه عين ولا جيد
ماذا لقيت من الدنيا وأعجبه
أني بما أنا شاك منه محسود
أني نزلت بكذابين ضيفهم
عن القرى وعن الترحال محدود
جود الرجال من الأيدي وجودهم
من اللسان فلا كانوا ولا الجود

ما يقبض الموت نفساً من نفوسهم
إلا وفي يده من نتنها عود

ثم مضى يرمي كافور بقوارع السخرية، ويرسل عليه صواعق
الذم والاستهزاء. لم تكن هجاءً فحسب، بل كانت مثال الهجاء في
كل زمان ومكان، وقد سار ذمه لكافور مسار الخافقين، ولا زال
أمثلاً سائرة بين العالمين.



ب: تحقيق سبب الحمى

بلاغة المتنبى لم تدع مجالاً للشك: أن سبب الحمى التي أصابته هي الملاريا، فقد وصفها وصفاً يصلح أن يكون مادة لدراسة التاريخ المرضي للملاريا. فهي حمى لها وقت محدد في البدء والانتهاء، ولها نمط معين في مكان الألم وشدته، فهي تصيب العظام والمفاصل.

والحمى التي أصابت أبا الطيب كانت تعتاده ليلاً، وكان ينتظر موعدها من غير شوق فلا تخيب ظنه أبداً، وهكذا الملاريا تأتي أعراضها في دورات منتظمة، لأنها مرتبطة بمراحل نمو طفيل البلازموذيوم في جسم الإنسان.

والعجب لا ينقضي من بلاغة أبي الطيب في وصف التعرق الغزير (profuse sweating)، الذي يصاحب انكسار سورة الحمى عندما قال:

كَأَنَّ الصَّبْحَ يَطْرُدُهَا فَتَجْرِي
مَدَامِهَا بِأَرْبَعَةِ سِجَامٍ

فلشدة ما تحبه الحمى، تبكي لفراقه بدمع غزير فياض يجري من أربعة مواضع: من الموقين، وهما طرفا العين، مما يلي الأنف، ومن اللحاظين، وهما طرفا العين، مما يلي الصدغ. وفي الحقيقة

أن هذا التعرق هو عملية تبريد فسيولوجية، يقوم بها الجسم كردة فعل للحمى الشديدة، التي تصيبه فجأة.

وفي قوله:

إِذَا مَا فَارَقْتَنِي غَسَّلْتَنِي كَأَنَا عَاكِفَانِ عَلَى حَرَامٍ

صورة عجيبة تدل على غزارة العرق، حيث شبهه بالغسل من الجنابة. أما اختصاصها بالحرام، فهذا من رواثع صور أبي الطيب، وكأنه يريد أن ينتقم من هذه الزائرة الثقيلة، التي لا تأتيه إلا خلسة، وقد هجع النيام.

وضفاف النيل كانت ولا تزال موطناً من المواطن الشهيرة لحمى الملاريا خصوصاً نوع (P. Vivax)⁽¹⁾، وذلك لتوفر الرطوبة العالية ودرجة الحرارة المرتفعة، وهما عاملان حاسمان في توفر البيئة المناسبة، لتكاثر البعوض الذي ينقل طفيل الملاريا.

والذي يتضح من سياق الأبيات، ومن معرفة سيرة أبي الطيب المتنبى: أن الحمى التي أصابته إبان إقامته في مصر ليست من النوع الخطير، الذي يتسبب في أغلب الوفيات من الملاريا، وهو نوع الفالسبيرم (P. Falciparum)، بل هو أحد الأنواع الأربعة الأخرى، التي تسبب حمى مزمنة، يصاحبها صداع متكرر، وآلام مبرحة في العضلات والمفاصل، حيث تستمر هذه الأعراض لعدة أشهر، بنمط محدد، ووتيرة متناقصة كما سيأتي تفصيله بعد قليل.

(1) http://www.cdc.gov/malaria/new_info/2014/malariaegypt.htm

ج: إضاءات طبية^(١)

الملاريا هي مرض معدٍ، يسببه كائن طفيلي، يسمى البلازموديوم، ينتقل عن طريق بعوضة الأنوفيليس، التي تحقن الطفيل في مجرى الدم، لينتقل مباشرة إلى الكبد، حيث ينمو ويتكاثر دون أن يشعر المصاب بأي عرض.

بعد ذلك يتسلل هذا الطفيلي داخل كريات الدم الحمراء، حيث ينقسم إلى أقسام عديدة، تؤدي إلى انفجار خلايا الدم الحمراء، وإفراز الطفيليات، وما يصاحبها من سموم إلى مجرى الدم مباشرة. تستثير هذه العملية جهاز المناعة، فيقوم برفع درجة حرارة الجسم لمقاومة هذا الطارئ الغريب، ويشعر وقتها المريض بالحمى الشديدة.

وما أن تنتهي هذه العملية حتى تعود حرارة الجسم إلى معدلها الطبيعي، وربما نقصت أحياناً عن المعدل، فيحس المريض وقتها بالبرد والرعدة الشديدة، ومن هنا سمتها العرب بالبرداء^(٢).

(1) <http://www.who.int/mediacentre/factsheets/fs094/ar/>

(٢) من المسميات الأخرى لحمى الملاريا عند العرب: حمى الربع، وذلك أنها تصيب المريض يوماً ثم تتركه يومين، وتعود إليه في اليوم الرابع. قال الشنفرى في لامية العرب: واللف هموم ما تزال تعوده عياداً كحمى الربع أو هي أثقل

ويساهم التعرق في تبريد الجسم، وينشأ كردة فعل فسيولوجية لنوبة الحمى المفاجئة.

تعود هذه العملية بجميع أطوارها على شكل دورات منتظمة في أوقات محددة، كل يومين أو ثلاثة أو أربعة أيام، بحسب نوع طفيل الملاريا.

ومن الأعراض الشائعة التي تصيب جميع مرضى الملاريا تقريباً الصداع المتكرر والإرهاق الشديد، الذي يصاحبه ألم مستمر في العضلات.

وقد تسبب الملاريا أنيميا حادة بسبب تكسر خلايا الدم داخل الأوعية الدموية (Intravascular hemolysis). ولذلك غالباً ما يعترى المريض شحوب شديد بسبب فقر الدم.

وبالإضافة إلى ذلك، قد تؤدي الملاريا إلى نقص شديد في صفائح الدم، مما يجعل النزيف خطراً محققاً على الحياة. ويجدر بالذكر أن نقصان الصفائح أحد النذر الأولية، التي تدل على شدة الملاريا.

أنواع الملاريا:

تنقسم الملاريا بحسب خطورتها على حياة المريض إلى نوعين

رئيسين:

١- **ملاريا خطيرة**، وهي مرض فتاك يهدد حياة أكثر من مليون إنسان سنوياً بسببه نوع الفالسيبرم (P. Falciparum)، وهو النوع السائد في أفريقيا، وفي أجزاء من الجزيرة العربية^(١). تستمر حضانة هذا الطفيلي من أسبوع إلى ثلاثة أسابيع بعد لدغة البعوضة، لتبدأ بعدها أعراض الملاريا بشكل حاد، على هيئة صداع وحمى شديدة، وقد تتطور بشكل سريع إلى ملاريا عصبية تؤثر على المخ والجهاز العصبي (Cerebral malaria) في حال عدم العلاج، أو عند من يعانون ضعفاً في جهاز المناعة.

وفي مراحلها الأخيرة يتحول الملاريا إلى مرض عام، يؤدي إلى فشل في وظائف أعضاء الجسم المختلفة: كالكلى والكبد وجهاز التنفس، ومن ثم الوفاة. ولذا تأتي أهمية التشخيص المبكر، والتدخل العلاجي السريع قبل تطور الحالة المرضية.

وهذا النوع بالذات يمثل كابوساً حقيقياً في الأوساط الطبية، إذ توجد منه حالات مقاومة لمضادات الملاريا المتوفرة حالياً.

٢- **ملاريا حميدة**، وهي عبارة عن حمى مزمنة، قد تستمر أكثر من ثلاثة أشهر، يصاحبها آلام في المفاصل وصداع متكرر، وقد تؤدي إلى فقر دم حاد بسبب تكسر الدم. ويتميز هذا النوع

(١) مختصر تاريخ الطب العربي (١/١٩١-٢١٥).

بأن الفترة بين دورات الحمى أطول قليلاً من النوع السابق، إذ قد تصل إلى أربعة أيام. وهذه الحمى تسببها الأنواع الأخرى من طفيل الملاريا وهي (P.Vivax، P. Knowlesi، P.Ovali، P.Malari)، والتي تنتشر في أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية.

وبعض هذه الأنواع يتميز بوجود طور كامن في الكبد قد يؤدي إلى رجوع المرض بعد مدة طويلة، ولذا لا يقبل التبرع بالدم من إنسان ثبت عنده الإصابة بالملاريا ولو مرة واحدة.

الوقاية من الملاريا:

تتخذ عملية الوقاية من الملاريا مسارين رئيسين:

١- الصعيد المجتمعي: يجب مكافحة البعوض بردم وتجفيف المستنقعات الموبوءة، والحرص على وضع الشبائيك ضيقة الفتحات على النوافذ والأبواب، خصوصاً في فترة ما قبل الفجر، فهي الفترة التي تنشط فيها بعوضة الأنوفيليس. كما ينبغي زيادة الوعي الصحي بين أفراد المجتمع بأهمية تكامل الجهود في مكافحة الملاريا.

بالإضافة إلى ذلك، يجب على الأطباء التأكد من توفر الأدوية اللازمة لعلاج الملاريا، ورفع درجة الاشتباه في إصابة أي مريض بالحمى، لا سيما إذا كان قادماً من منطقة موبوءة.

٢- الصعيد الضردى: يجب على الأفراد تجنب السفر إلى مناطق الملاريا قدر الإمكان، وفي حال السفر ينبغي أخذ المضادات المناسبة للملاريا والاستمرار عليها في أثناء السفر، وبعد العودة لمدة أربعة أسابيع، لأن فترة الحضانة قد تستمر كل هذه المدة.

كما يجب اتخاذ جميع الوسائل المتاحة لتجنب لدغ البعوض، كارتداء ملابس ذات أكمام طويلة تغطي الذراعين، ولبس الجوارب التي تغطي الساقين، واستخدام المراهم الطاردة للبعوض.

ومن الأخطاء الشائعة التي يرتكبها بعض المسافرين إلى المناطق الموبوءة بالملاريا، أن يترك الاحتياطات الوقائية بعد مرور مدة من الوقت ظناً منه أن جسمه قد اكتسب مناعة ضد الملاريا، مثل السكان المحليين. وهذا خطأ جسيم كثيراً ما كلف الرحالة حياتهم، لأن المناعة الدائمة ضد الملاريا لا تكتسب بهذه السرعة، وإنما تنشأ عبر الوراثة، حيث تتأقلم خلايا الدم عبر أجيال عديدة لمنع طفيل الملاريا من دخول خلية الدم. وهذا التكيف يأخذ أنماطاً عديدة، كتحور بعض الخلايا بسبب وراثته الأنيما المنجلية (Sickle cell trait)، أو بسبب نقصان بعض الإنزيمات في خلايا الدم الحمراء، مثل G6PD، أو بعض المستقبلات، مثل Duffy blood group.

أما المناعة المؤقتة فتكتسب عادة بعد الإصابة بالملاريا، ثم ما تلبث أن تزول بمجرد أن يفارق المرء مناطق الملاريا.

د: متلازمة المتنبى^(١)

يقصد بها مجموعة أعراض نفسية وسلوكية، تشكل نمطاً نفسياً مميزاً لفئة مخصوصة من العباقرة العصاميين، التي يتوفر فيها شرطان أساسيان:

١- موهبة خارقة، تقترن مع طموح يجاوز عنان السماء.

٢- نشأة في وضع اجتماعي بئيس، يجمع بين فقر بالغ ومكانة متدنية.

وقد تختلف طبائع هؤلاء بحسب عوامل الوراثة وظروف الحياة، لكن غالباً ما يشتركون في السمات الشخصية التالية:

أولاً: الشك المفرط فيما يحيط بهم، وعدم الثقة في أحد، مما يؤدي بهم إلى إعلاء قيم الفردية، والتخلي عن روح الجماعة. وقد بلغت هذه الصفة عند أبي الطيب منتهاها، حيث يقول:

وصرت أشك فيمن أصطفيه لعلمي أنه بعض الأنام

فهو يشك حتى في أحبابه المقربين، لمجرد أنهم من جملة الخلق. وهذه الصفة مقبلة جداً في علم الإدارة، لأنها تقوض عملية التفويض برمتها، وتلغيها تماماً من حسابات المدير المصاب

(١) عذراً أبا الطيب، فلم أجد أوفى من سيرتك، لبيان هذه المتلازمة المبتكرة!

بمتلازمة المتنبى، فيميل إلى احتكار السلطة، وفرض الرأي، وعدم الأخذ بالنصيحة. وما يلبث الناس أن يتألبوا ضده، وربما كاده بعضهم، فتأكد ظنونه المسبقة، ويزداد توجساً وشكاً.

ثانياً: الحساسية الزائدة من النقد، خصوصاً فيما يمس ذواتهم، أو عند التشكيك بقدراتهم، لدرجة أن يثور أحدهم لأمر يراه غيره عادياً، ويقوم بردود أفعال لا تتناسب أبداً مع حجم الإساءة التي تعرض لها. ومن الملفت للنظر أن ردود الأفعال لا تتوجه مباشرة للشخص المسيء، بل تركز على تضخيم الأنا، بشكل مبالغ فيه. ألم تر أن المتنبى حين أساء له حساده لم يهج أحداً منهم! وإنما ثار في وجه سيف الدولة:

يا أعدل الناس إلا في مخاصمتي

فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

ثم فخر بنفسه فخراً، لا يدع قولاً لخصم ولا لحكم:

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا

بأنني خير من تسعى به قدم

فلما أحس أنه قد انتصف لنفسه هدأت ثأرته:

إن كان سرکم ما قال حاسدنا

فما لجرح إذا أرضاكم ألم

وهؤلاء يتمتعون بحس مرهف وبمشاعر جياشة تجاه من يحبونهم، ولكنهم يخشون التعبير عن هذه المشاعر خشية أن يحس الناس بضعفهم، فيتجرؤون عليهم.

ثالثاً: روح العجب والتعالي الذي يبلغ حد الغرور، ويرفع النفس عن مستوى البشرية:

تمرست بالآفات حتى تركتها

تقول أمات الموت أم دعر الذعر

وفي الحقيقة أن هذه الروح المتعالية، تخفي خلفها هيكلًا داخلياً هشاً، وغالباً ما تكون غطاءً لعقد المتلازمة الثلاث: الفقر، والاحتقار، والتسلط.

وسرعان ما تتحول إلى اكتئاب حاد حال الإخفاق:

وأنى شئت يا طريقي فكوني نجاة أو أذاة أو هلاكاً

التعامل الأمثل مع متلازمة المنتبي:

لا أجد أمثل من قول أبي الطيب نفسه:

ولم أرى في عيوب الناس شيئاً كنعص القادرين على التمام

إن أعلى درجات الإنجاز هو ما ولد من رحم المستحيل، وأعلى درجات النجاح هو ما اقترن فيه الإنجاز العظيم، مع توازن أعظم بين ذات الإنسان وعلاقاته.

والتوازن بين الذات والعلاقات، هو أهم ما ينقص المصابين بمتلازمة المتنبى، ولتحقيق قدر مقبول من هذا التوازن، لا بد من الخضوع لعلاج معرفي وسلوكي، يركز بالدرجة الأولى على تغيير المفاهيم والتصورات الخاطئة، وغرس مفاهيم وسلوكيات صحيحة.

ومن الأهمية بمكان، ألا يستكف أي واحد من هؤلاء عن هذا العلاج، حتى لو كان بصورة فردية، عن طريق الكتب والبرامج الحاسوبية المتخصصة في هذا الشأن. لأن استمرار النجاح منوط بتحقيق هذا التوازن.

وهنا أربع قواعد ذهبية، ينبغي أن يعيها كل من لديه قدر من متلازمة المتنبى:

١- المواقف السلبية التي تعرضت لها في صباك، لم يعد يتذكرها أحد سواك، فلا تذهب نفسك عليها حسرات، وإن استطعت أن تتذكرها بمشاعر محايدة فافعل.

٢- مخالف الفقر الغائرة، التي نشبت في قلب الطفولة الغض، لا يداوي أثرها المال ولو أكثر، ولا مظاهر البذخ ولو عظمت. وإنما

يدأويها البذل والعطاء بشتى صورهما الحسية والمعنوية، من ابتسامة، إلى كلمة طيبة، فهدية خفية، ثم صدقة لا يتبعها منٌّ ولا أذى. وسرعان ما تتحول هذه الجروح الغائرة التي كانت تقيح حقداً وألماً إلى موارد صافية، تمد الروح بما يقويها ويشد أزرها.

٣- الوضع الاجتماعي البئيس، لا يتسبب فيه فرد، بل ولا طبقة من طبقات المجتمع، إذ هو خلل في منظومة اجتماعية متكاملة، فلا معنى إذن للانتقام من فرد أو من طبقة، بل ينبغي العمل الجماعي، لتصحيح مسار هذه المنظومة.

٤- العلاقات التي تبني على المشاعر وحدها سرعان ما تتقلب مع تغير العاطفة، وإنما تدوم العلاقة المبنية على حسن التعامل والتقاء المصالح. فإذا أردت دوام العلاقة فاجعلها مريحة للطرفين، واحذر فلتات اللسان.



الفصل الثالث

ابن الرومي

النزف يفتال واسطة العقد

أ: قصة ابن الرومي^(١)

حسنة بنت عبد الله^(٢)، وقد أسبلت عينيها، فأوقفت نَفْسَهَا قليلاً، لئلا تنفث زفرة حرى، توظف صبيها النائمين على ذراعها اليسرى. لم تحتمل طويلاً، فقامت تدور في بيتها الضيق، لعل خطواتها المتثاقلة أن تخفف عنها شيئاً من حرارة جوفها.

يا الله! ما أقسى لوعة الأسي، ومضض الفقد، إذا اقتترنت برعب الخوف من مصير مجهول في قلب أرملة غريبة.

مات العباس، وماتت معه أزاهير الحب، الذي جمع بين الروم والفرس في بلاد العرب. مات رفيق الغربة وأنيس الوحشة، وانقطع معه سبب الرزق من قصور مواليه بني العباس، فمن سيدري بعد اليوم عن غريبة فارسية تعول أيتاماً لمولى رومي؟

أوشكت حسنة على الانهيار، وهي تتأمل في ولديها الصغيرين: جعفر وعلي، وقد ناما ملء جفونهما. أسندت ظهرها إلى الحائط، ثم هوت إلى الأرض ودخلت في نوبة بكاء مريرة.

(١) للاستزادة، انظر: ابن الرومي، حياته من شعره، لعباس محمود العقاد.

(٢) والدة الشاعر علي ابن الرومي.

انقطع بكاءها فجأة! ثم صرخت صرخة الغريق في وجه الموجة الهائجة، التي تكاد تبتلعها، ومن يدري لعل أسارير البحر أن تنفرج عن قشة توصله إلى بر الأمان.

تماسكت قليلاً، وجففت مآقيها، وسكنت أنفاسها المتتابعة، فانطلق صوت العقل خافتاً: ليس الأمر كما تظنين، فالبذرة التي تثبت بعد حريق الحقل تكون أكثر نضارة وأصلب عوداً، والصخرة التي تقف في وجه الأتي^(١) حال شدة اندفاعه، ينكسر عنها السيل، وقد رفدها بما يشد أزرها.

وهكذا مضت الأيام الأولى على حسنة بعد وفاة زوجها بين حزن وتجميل:

الحزن يقلق والتجميل يردع والدمع بينهما عصي طيع

يتنازعان دموع عين مسهد هذا يجيء بها وهذا يمنع^(٢)

رأت حسنة أن غاية الوفاء لحبيبها الراحل أن تقف نفسها على رعاية ثمرة الحب بينهما. استجمعت قواها، وعقدت عزمها على أن تكون لهم أمًّا وأبًّا، وأخًا صديقًا في الوقت ذاته، وما داما في حياتها كل شيء، فلتكن هي في حياتهم كل شيء أيضاً.

(١) الأتي: هو السيل القادم من بعيد في اندفاع وشدة.

(٢) البيت والذي قبله، لأبي الطيب المتنبي، انظر: شرح البرقوقى (٩/٣).

كان جعفر آنذاك صبيًا مميّزًا، أما علي فقد كان في المهدي رضياً. ويجزم الأب رسمت مستقبل أولادها، وقسمت الأمر بينهما، فجعفر لاكتساب العيش، وعلي لطلب العلم.

وبتوجس الغريب أحاطت نفسها وأولادها بسياج من العزلة، فنشأ علي هادئًا وديعًا، يميل إلى اللعب مع نفسه وحيدًا، وينفر من الخلطة، ويأبى المشاركة، ويزعجه كل عمل جاد، بخلاف أخيه الأكبر، الذي ألبسته الحاجة رداء العمل الغليظ، ولما يخلع العمر عنه إهاب الطفولة بعد.

لم يجاوز علي حمى البيت، ولم يختلط بالناس عن كتب، حتى دخل الكتّاب لتعلم القراءة والحساب، وحتى في هذه المرحلة كانت أمه الحازمة تأخذ بيده جيئةً وذهابًا، وعذرها في ذلك فساد الناس.

حفظ علي القرآن، وحذق العربية، ونظم الشعر، حتى عرفه الناس بابن الرومي. وما أن شب عن الطوق، حتى تمرد على كل شيء! أخذ المال من أخيه وأمه وأنفقه في كل وجه. فاجتمع له الأصحاب كما يجتمع القطا على مشرع الماء العذب غداة يوم قائظ، وتتبع القيان ينشد وصالهن، وينظم فيهن الشعر.

لم يكن خبيراً بجمع المال، وإنما كان بصيراً بإنفاقه، فأتلف ذات يده، وأملق أملاقاً شديداً، وعندها علم أن وفاء الأصحاب سراب، وأن وصل الغانيات برق حُلب^(١)، فنطق الشعر على لسانه:

عدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثرن من الصّحابِ
فإن الداء أكثر ما تراه يحول من الطعام أو الشرابِ
إذا انقلب الصديقُ غداً عدواً مُبيناً، والأُمورُ إلى انقلابِ
ولو كان الكثيرُ يطيّبُ كانت مُصاحبة الكثير من الصوابِ
وما اللُّججُ الملاحُ بمُروياتٍ وتلقى الرّيِّ في النُطفِ العذابِ

لم تكن تجربته الأولى تجربة العاقل البصير، الذي يدرك مواضع خطئه، وإنما تجربة الرضيع، الذي وُضع المريفِ فمه، فعاف لبن أمه.

لم تكن في الحقيقة سوى تمرد أهوج على سلطة من فكر عنه، وقرر بدلاً منه، وحرمه متعة التجربة.

فشلت التجربة الأولى فشلاً ذريعاً، فانكفاً ابن الرومي على نفسه بعدها، وعاد إلى عزلته الأولى يمقت الناس ويذمهم. كانت عزلته هذه المرة شديدة، فهي بمحض إرادته أولاً، وناشئة عن ردة فعل حادة على تجربة مريرة ثانياً.

(١) بَرَقُ حُلْبٍ: خادع، لا يتبعه مطر، يضرب مثلاً لمن يعد ولا يُنجز.

إن كل من يلج هذا الكهف، ويطيل المكث فيه، سستمحور أفكاره
حتمًا حول مشاعره، وتتضخم أخطاء الآخرين في عينه، فلا يغفر
لهم زلة، ولا يتجاوز لهم عن إساءة.

وبالمقابل يزداد تعلقه بدائرة الأقارب اللصيقة، التي تتولى
أمره، وتكفيه مؤنة عيشه، وفقد أي واحد من هؤلاء يفجر في نفسه
بركانًا لا يخمد، ونار لظى لا تنطفئ.

وهكذا صبغت العزلة حياة ابن الرومي وشعره، فدار بين حس
مرهف، وسخرية لاذعة، ورتاء يقطع نياط القلوب.

كان هجاؤه رسمًا ساخرًا من الحياة وأهلها، وربما هجا
الرجل، فأضحكه على نفسه:

يقتر عيسى على نفسه وليس بباق ولا خالد

ولو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد

يعتكف في بيته برهة من الدهر، ثم يخرج إلى السوق، فإن
رأى أعرج أو أعور تشاءم به وهجاه، ثم رجع إلى بيته. وخرج مرة
فعارضته جنازة، فجعل يهجو الميت، ويحرض منكرًا ونكيرًا عليه!

تحامى الناس لسانه، فلم يقبل منه أحد مدحًا، خشية أن
ينقلب عليه هجاء ساخرًا، فانقطعت أسباب عيشه، وساءت حالته.

أما الرثاء فله شأن آخر عند ابن الرومي، فالموت لا يسلبه
قريبه فحسب، بل يزيد من ترديه في كهف عزلته الكئيب، ويغلق
عليه منفذاً من منافذ النور إلى الأبد.

تموت خالته، فيخيل إليه أن القيامة قد قامت والأرض قد
بدلت، فكيف إذا ماتت أمه، التي كان يحيا بروحها:

أفِيضاً دَمًا إِنَّ الرِّزَايَا لَهَا قِيَمٌ
فليس كثيراً أن تَجُودًا لَهَا بَدَمٌ

ولا تستريحا من بُكاءِ إلی كَرَى
فلا حمد مالم تُسعداني على السَّامِ

رزيئة أم كنتُ أحيًا بِرُوحِهَا
وأستدفعُ البلوى وأستكشفُ الغُممِ

تتابعت على فؤاده الأحزان، وفني أقرباؤه واحداً تلو الآخر،
حتى إذا بقي وحيداً، اضطر للخروج من كهف عزلته، وتزوج، فرزق
ثلاثة صبية، كانوا بعثاً لروحه، ورياً لنفسه، وشفاء لقلبه.

ومع أن محمداً لم يكن أكبر الأولاد، إلا أنه كان ريحانة الفؤاد
وسلوة الروح، ولعل هذا يعود لجمال طلعتة وحلاوة لسانه، أو ربما
لأنه تأخر في المشي قليلاً فتعلق به والده حباً وإشفاقاً.

إن ضمة واحدة لريحانة قلبه تزيل ما لحق بروحه من ضنى
الفقد وشجى الفراق. لقد غير الطفل الصغير نظرة والده إلى
كل شيء، فالبيت لم يعد كهفًا للعزلة، بل مسرحًا للعب مع محمد،
والسوق لم يعد مجمعًا لأرباب الجشع والبخلاء، بل متجرًا للألعاب
محمد، لم يعد يضجره فضول الناس وتطفلهم على حياته، طالما
أنهم يسألون عن محمد.

وأكثر من ذلك، لم يعد المجتمع مثارًا للسخرية وموضعًا للهجاء،
بل غدا موئلاً للشفقة والرتاء. تسقط البصرة بأيدي الزنج^(١)،
فيرثها من بغداد رثاء يدمي القلوب، ويحرك جيوش الخلافة:

ذاد عن مقلتي لذيذ المنام

شغلها عنه بالدموع السُّجام^(٢)

أيُّ نومٍ من بعد ما انتهك

الزنجُ جِهارًا محارمَ الاسلام

دخلوها كأنهم قطع الليل

إذا راح مُدْلهُمُ الظلام

(١) ثورة كاسحة قامت ضد الدولة العباسية، ابتدأت سنة ٢٥٥ هـ، وتمركزت حول مدينة
البصرة. سميت بثورة الزنج، لأن عمادها كان الرقيق الأسود، الذي كان يعمل في مزارع
البصرة. قضت عليها الدولة العباسية سنة ٢٧٠ هـ بعد حروب مضنية وطويلة.

(٢) سجم الدمع: سال وتقاطر على الخد.

كم رضيع هناك قد فطموه
 بشبأ السيف قبل حين الفطام
 كم فتاة مصونة قد سببوا
 بارز وجهها بغير لثام
 انضروا أيها الكرام خفافاً
 وثقالاً إلى العبيد الطغام

خطى محمد خطواته الأولى، وقد غار منه حتى الورد، فأهداه
 حمرته بين الفينة والأخرى. ازداد الأب به تعلقاً وحباً، ولم يدر أي
 هدية أهداها الورد له.

خرج ذات غداة وقد روّى نفسه من ضم محمد وتقبيله، فلما
 جاوز عتبة الدار تبعه محمد فتعثر وسقط. أسرع إليه واحتمله،
 وإذا أنفه وركبته تسيلان دمًا. حاول إيقاف الدم فلم يستطع، صاح
 بالناس، فاجتمعوا له بين راق ومتطبب، فزاد الدم فوراً، حتى ذوى
 الصبي في أيديهم وأبوه ينظر، غارت عيناه، وغابت حمرة الورد من
 خديه، وحلت محلها صفرة الزعفران.

تحول الرقاة إلى مواسين، والأطباء إلى معزين، وأبوه لا يفضي
 عنه طرفة عين، وكأنما يودع روحاً لا حياة له بعدها.

يا لمحمد! يا لنفحة نسيم باردة، هبت من تلقاء سحابة صيف
عارضة على روح من ألهب الظمأ جوفه في هجير المفازة المهلكة.
كان محمد سبباً أخرج أباه من غيابة الجب، فلما بلغ شفاها
انقطع به فهوى. مات محمد، ومات معه المستقبل، كما مات قبله
الماضي:

بكاؤكُما يشفي وإن كان لا يجدي
فجودا فقد أودى نظيركُما عندي
بُنَيَّ الذي أهدته كُفَّاي للثُرَى
فيا عَزَّةُ المهدي ويا حسرة المهدي
ألا قاتل الله المنايا ورميها
من القوم حَبَاتِ القلوب على عَمَدِ
توخى حَمَامُ الموت أوسطَ صبيتي
فلله كيف اختار واسطة العقدِ
على حين شمَّتْ الخيرَ من لِحَاتِهِ
وأنستْ من أفعاله آية الرُّشدِ
طواه الرَّدَى عني فأضحى مَزارهُ
بعيداً على قُرب قُريباً على بُعدِ

لقد أنجزت فيه المنايا وعيدها
وأخلفت الآمال ما كان من وعد
لقد قل بين المهدي واللحد لبثه
فلم ينس عهد المهدي إذ ضم في اللحد
تنغص قبل الرئي ماء حياته
وفجع منه بالعذوبة والبرد
ألح عليه النزف حتى أحاله
إلى صفرة الجادي عن حمرة الورد
وظل على الأيدي تساقط نفسه
ويذوي كما يذوي القضيب من الرند
عجبت لقلبي كيف لم ينفطر له
ولو أنه أقسى من الحجر الصلد
بوذي أني كنت قدمت قبله
وأن المنايا دونه صمدت صمدي
وإني وإن متعت بابني بعده
لذاكره ما حنت النيب في نجد
وأولادنا مثل الجوارح أيها
فقدناه كان الفاجع البين الفقد

هل العينُ بعدَ السَّمْعِ تكفي مكانهُ
أم السَّمْعُ بعدَ العينِ يهدي كما تهدي
لعمري لقد حالتُ بي الحالُ بعدهُ
فيا ليتَ شعري كيف حالتُ به بعدي
أريحانةَ العينينِ والأنفِ والحشا
ألا ليتَ شعري هل تغيَّرتَ عن عهدي
كأني ما استمتعتُ منك بنظرةٍ
ولا قُبلةٍ أحلى مذاقًا من الشُّهدِ
كأني ما استمتعتُ منك بضمَّةٍ
ولا شمَّةٍ في ملعبٍ لك أو مهدِ
ألامُ لما أبدي عليك من الأسي
واني لأخفي منه أضعافَ ما أبدي
محمَّدُ ما شيءٌ توهَّم سلوة
لقلبي إلا زاد قلبي من الوجدِ
أرى أخويك الباقيينِ فإنما
يكونان للأحزانِ أوري من الزندِ
إذا لعبا في ملعبٍ لك لذعا
فؤادي بمثل النار عن غير ما قصدِ

فما فيهما لي سَلوة بل حَزَاة
يَهيجَانهَا دُونِي وَأَشْقَى بِهَا وَحْدِي
وَأَنْتَ وَإِنْ أَفْرَدْتَ فِي دَارٍ وَحْشَةً
فإِنِّي بَدَارِ الْأَنْسِ فِي وَحْشَةِ الْفَرْدِ
وَمَنْ كَانَ يَسْتَهْدِي حَبِيبًا هَدِيَّةً
فَطِيفُ خِيَالٍ مِنْكَ فِي النَّوْمِ أَسْتَهْدِي
عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ مِنْ تَحِيَّةٍ
وَمَنْ كُلِّ غَيْثٍ صَادِقِ الْبُرْقِ وَالرَّعْدِ

لم يكن موت محمد خاتمة الأحزان، وإن كان أشدها، بل
سرعان ما لحقه أخواه الآخران. وهكذا أصبح فؤاد ابن الرومي في
غشاء من الرزايا والمحن، فلم يعد يرثي ميتاً ولا يبالي بموت أحد.



ب : تحقيق سبب الوفاة

مما لا شك فيه أن سبب موت محمد هونزيف الدم الحاد، الذي حول لونه من احمرار الورد إلى صفرة الجادي وهو الزعفران. ويغلب على الظن أن سبب هذا النزيف هو مرض وراثي يدعى النزاف أو الهيموفيليا (Hemophilia).

وينتج هذا المرض من نقص أحد البروتينات المسؤولة عن تخثر الدم مما يؤدي إلى زيادة سيولة الدم وحدوث النزيف المتكرر. وتختلف شدة النزيف طبقاً لمقدار النقص في عامل التخثر، حيث تصل إلى حد الوفاة في حالات النقص الشديد، خصوصاً عند حدوث النزيف من عدة أماكن في الجسم، أو في الأعضاء المهمة كالدماع.

وهذا المرض لا يمكن علاجه إلا عن طريق تعويض الجسم بالبروتين المفقود، ولذا يموت أغلب المرضى سابقاً في سن مبكرة جداً.

والهيموفيليا مرض وراثي يرتبط بالجنس، حيث يصيب الذكور في أغلب الحالات، ولا يصيب الإناث إلا في حالات نادرة جداً.

ويكون نمو الطفل المصاب بالهيموفيليا سليماً، ولا تظهر عليه علامات مبكرة سوى بعض الكدمات السطحية التي تزول سريعاً، وما أن يبتدئ بالمشي حتى يبدأ النزيف في ركبتيه وفي عضلاته، مما يؤخر عملية المشي لديه بسبب الضرر الحاصل في مفاصل الركبة والحوض.

ويبدو أن محمداً مات ولم يجاوز الثالثة بدليل قول أبيه:

لقد قلّ بين المهّد واللّحد لبثّه

فلم ينسَ عهد المهّد إذ ضمّ في اللّحدِ

ثم وصف طريقة موته المحزنة بثلاثة أبيات، تقطر لوعة وأسى:

تنغصّ قبل الرّيّ ماءً حياّته

وفجّع منه بالعدوّة والبردِ

وماء الحياة هنا هو الدم، ويعني أن النزف أحال جسمه بارداً،

لأن الدم هو مصدر الدفء للأعضاء الطرفية.

ألحّ عليه النّزفُ حتى أحاله

إلى صُفرة الجاديّ عن حمرة الوردِ

ويعني هنا الشحوب الذي اعتراه بسبب النزف الشديد، الذي

ألح عليه حتى غير لونه من حمرة الورد إلى اصفرار الزعفران.

وظلّ على الأيدي تساقط نَفْسُهُ

ويذوي كما يذوي القضيْبُ من الرُّنْدِ

وهذه الصورة الحزينة في غاية الشاعرية، فهو يشبّه ابنه الذي ذوى عوده عندما نزف ماء حياته، بقضيب الرند الذي جف ماؤه، فذبل وذوى. والرند نبت طيب الرائحة، يسمى ورقه ورق الغار.

أما أخواه الأخران فلم أجد مصدرًا يبين كيف ماتا، ولكن موتهما وهما صغيران جدًّا دليل يؤكد الطبيعة الوراثية للمرض. ويترجح عندي أن الهيموفيليا التي أصابت أبناء الشاعر أتهم من جهة الأم، لأن الأنثى إذا كانت حاملة للمرض فستنقله لجميع أولادها الذكور، أما الإناث فيكون نصفهن ناقلًا للمرض، والنصف الآخر سليمًا.

ومما يثبت أن المرض الذي أصاب أبناءه كان وراثيًا من جهة الأم، أنه تزوج بعد وفاة زوجته الأولى، فرزق ابنا، ذكره في عدة قصائد، مدح بها القاسم ابن عبيدالله^(١) وزير المعتضد. ويغلب على الظن أن هذا الابن لم يمتهن في حياة أبيه، إذ لم ينقل أنه رثاه أو تفجع لفقده كما فعل مع أبنائه الثلاثة الأول^(٢).

(١) القاسم بن عبيدالله بن وهب وزير المعتضد، كان شهيمًا مهيبًا، مات سنة ٢٩١ للهجرة.

(٢) ابن الرومي، حياته من شعره، للعقاد (ص ٧٥).

ج: إضاءات طبية⁽¹⁾

النزاف أو الهيموفيليا هو أكثر أمراض النزيف الوراثية شيوعاً عند الذكور، وينشأ بسبب خلل جيني في بروتينات التخثر، خصوصاً العامل الثامن (VIII Factor)، والعامل التاسع (Factor VIX)، حيث يؤدي هذا الخلل إلى نقص حاد في إنتاج هذه البروتينات، مما يجعل المريض عرضة للنزيف.

ونظراً لأن جينات الهيموفيليا تحمل على الكروموسوم الجنسي إكس (X-chromosome) فإنها تصيب الذكور غالباً، لأن لديهم كروموسوماً واحداً من نوع إكس (XY) بينما لدى الإناث كروموسومان (XX).

وعند توريث هذا المرض، فإن الذكر إما أن يكون مصاباً أو سليماً، أما الأنثى فقد تكون حاملة للمرض، وليست مصابة إذا حدث الخلل في كروموسوم واحد فقط.

ولا تظهر علامات المرض في مرحلة الطفولة الأولى، ما خلا حدوث كدمات بسيطة، تزول مع مرور الوقت. ولكن قد يكتشف المرض مبكراً في المجتمعات التي تجري عملية الختان بعد الولادة بوقت قصير، حيث يكون النزيف شديداً.

(1) Postgraduate Hematology; V. Hofbrand page 720753-

وما أن يبدأ الطفل بالمشي أو الحبو، حتى يحدث النزيف داخل المفاصل التي تحمل الجسم كالركبتين مثلاً، مما يؤدي إلى تورمهما، وتأخير عملية المشي. وتكرار هذا النزيف يؤدي إلى تشوه المفاصل، وقد يسبب إعاقة مزمنة.

ويعد نزيف العضلات من الأعراض الشائعة للهِيموفيليا، خصوصاً في منطقة الفخذ والبطن، وقد يحدث النزيف تلقائياً من دون أي إصابة في حالات النقص الشديد لعامل التخثر.

أما في حالات الإصابة، فإن النزيف يكون شديداً جداً في أي موضع كانت الإصابة. ومن أخطر أنواع النزيف، هو ذلك الذي يحدث في الأعضاء المجوفة كالدماع والأمعاء، إذ قد يؤدي إلى الوفاة.

علاج الهموفيليا: يقوم علاج الهموفيليا على ثلاثة أسس.

١- التعامل الأمثل مع النزيف:

من الأهمية بمكان تثقيف المريض وأقاربه عن الطريقة المثلى للتعامل مع النزيف حال حدوثه، والتي تقوم على أربع إجراءات مهمة: الضغط، الرفع، الثلج، الراحة.

الضغط: ينبغي وضع رباط ضاغط حول المفصل المجروح لتقليل سرعة النزف، ولكن يجب إزالة هذا الرباط حال توفر العلاج، لئلا يقف تدفق الدم عن المفصل طويلاً.

الثلج: تبريد الجلد يؤدي إلى انقباض الأوعية الدموية، ومن ثم التخفيف من تدفق الدم إلى المنطقة المصابة.

الرفع: ويعني به رفع الذراع المصاب أعلى من مستوى القلب، لتقليل تدفق الدم.

الراحة: وتعني الهدوء وعدم استخدام المفصل المصاب، حتى يقف النزيف تماماً، ويتمائل العضو للشفاء، لأن تحريك الطرف المصاب يعرض العضلات والمفاصل لمزيد من النزيف، ومن ثم المزيد من الضرر.

كما ينبغي تثقيف المريض وأقاربه عن أفضل طرق الوقاية، لتجنب الإصابات المنزلية: كفرش البيت بالموكيت والسجاد، بدلاً من السيراميك، ولبس الأحزمة الواقية لمنطقة الركبة. كما يجب تجنب الرياضات العنيفة، التي قد تؤدي إلى حدوث النزيف.

٢- العلاج

يختلف علاج الهيموفيليا تبعاً لشدة الحالة، ولنوعية ومكان النزيف. فالحالات الطفيفة يمكن علاجها عن طريق الحقن البطيء لهرمون الديزموبريسين (DDAVP) في الوريد، أو عن طريق الأنف. أما الحالات المتوسطة والحادة فلا بد من تعويض

الجسم بعامل التخثر الناقص، الذي يستمد من دم الإنسان المتبرع، أو من المنتجات المعدلة وراثياً.

ولمنع حدوث المضاعفات يمكن أن يقوم الطبيب بتدريب المريض ومن حوله على طريقة أخذ حقن هرمون الديدزموبريسين، أو عامل تخثر الدم في المنزل أو العمل أو المدرسة، بحيث يأخذها مرتين إلى ثلاث مرات أسبوعياً.

٣- تأسيس مراكز العناية الشاملة لمرضى الهيموفيليا :

مراكز العناية الشاملة من أنجح وسائل معالجة الهيموفيليا، وذلك لأنها تقدم خدمات متعددة أخرى بجانب العلاج مثل طرق العناية الجسدية والنفسية، والعناية بالأسنان والعظام. وبالإضافة الى ذلك، فهي توفر خدمات مساندة، ترتبط بمعالجة الضغوط الأسرية والاجتماعية. يجدر بالذكر أن تأسيس مثل هذه المراكز يُعدُّ إجراءً فعالاً من الناحية الاقتصادية، لأنه يساهم في الوقاية من المضاعفات الخطيرة لمرضى النزف، التي يستهلك علاجها موارد اقتصادية هائلة.



د: تربية الاستحواذ

على مدى التاريخ شكل الأيتام علامة فارقة في تاريخ البشرية، وبالأخص أولئك الذين فقدوا آباءهم، وتربوا على أيدي أمهات عظيمات، أخرجن للعالم عباقرة، غيروا مسار التاريخ، وكان لهم القدح المعلى في قيادة ركب الحضارة نحو الرقي والتقدم. ومرد هذا النبوغ والعبقرية إلى أمرين أساسيين:

١- تحمل المسؤولية والاعتماد على النفس في سن مبكرة، مما يساعد على صقل المهارات، ويعزز جانب العلاقات عند الطفل، ويتيح له مخالطة ذوي الخبرة والتجربة.

٢- توفر قدر كبير من الحرية في تبني الآراء واتخاذ القرارات، مما يساهم في تنمية ملكة الإبداع، ويحفز القدرة على الابتكار.

ويتلخص دور الأم العظيمة في تعزيز ثقة الطفل بنفسه، وإذكاء روح المسؤولية لديه، دون المساس المباشر بحريته، لينشأ الطفل وقد اكتملت لديه ركائز الإبداع الثلاثة: الدافع الذاتي، والمهارات الأساسية، والعلاقات الناجحة.

وقد تخطى بعض الأمهات فتستحوذ على كافة شؤون ابنها، وتتحمل جميع المسؤوليات عنه، وتتدخل في أدق تفاصيل حياته.

والأدهى من ذلك أن تلي بنفسها اتخاذ القرارات نيابة عنه، فيكبر الطفل وقد افتقد حس المسؤولية، وضاق عليه أفق الحرية، وحرَم من متعة التجربة وفائدتها.

إن أي طفل كهذا، سينشأ منكفئاً على نفسه، ميّالاً للعب الفردي، مؤثراً لما تعود عليه وما جُرب له. وغالباً ما يكون اتكالياً، لا يستطيع أن يلي أمره بنفسه.

ومع أن تربية الاستحواذ قد تلحق ضرراً بالغاً بمهارات النجاح الأساسية، إلا أن أشد أضرارها فداحة، يكون في جانب العلاقات، فإما أن يكبر الطفل ساذجاً، يستغله ضعاف النفوس، أو يكون انطوائياً مؤثراً للعزلة، وربما جمع بين السواتين، كما حدث لابن الرومي.

ومما يثير الشفقة أن يكون عند هؤلاء مواهب مميزة، تدفن في ثرى العزلة، ويقضي عليها الرهاب الاجتماعي، وافتقار مهارات التواصل. وقد يكون منهم العبقري، الذي يحتاج المجتمع إلى فكره المميز، وموهبته الخارقة، فلا يتوصل إليه أحد، ولا يعرفه أهل زمانه. وأمثال هؤلاء تكون خسارتهم مضاعفة، إذ يخسرون مواهبهم التي لا يقدرها أحد، ويخسر المجتمع إمكاناتهم الفذة.

قد يحدث الاستحواذ من الأب والأم على حد سواء، لكن وطأته تكون أشد إذا جاء من قبل الأم، لقدرتها على الفوص في

أدق التفاصيل بخلاف الأب، الذي يرسم الإطار العام، ويعجز عن متابعة دقائق الأمور غالباً.

وهنا أربع قواعد ذهبية، ينبغي أن يعيها كل مربٍّ:

١- يولد الطفل ولديه ملكات عقلية كامنة، تمده بقابلية التعلم، ولكن هذه الملكات مثل معدن الحديد الخام، يحتاج إلى الصقل حتى يكون سيفاً ماضياً. وإنما تصقل ملكات الإنسان بالتلقين والتجربة والمخالطة.

فعن طريق التلقين تنتقل خبرة المربي في الحياة، وحكمته التي استفادها من نتائج تجاربه. أما التجربة فهي الامتحان الحقيقي، الذي يقوم به الإنسان لاختبار صحة المعلومات، التي استقاها عن طريق التلقين. وسرعان ما يشك المرء في صدق معلومات من يمنعه من التجربة، أو يملئ عليه النتائج مسبقاً.

وبالمخالطة يتعرف الإنسان على طرائق جديدة في اكتساب المعرفة، ويتعلم فقه المقارنة بين الأشخاص والأشياء والأفكار.

وثمة أمر دقيق يجب أن ينتبه له الوالدان، والمربون عموماً، ألا وهو أن عزل الأبناء في مراحل مبكرة، وأطرهم على أفكار المربي دون نقاش أو سماح بالتجربة أو المقارنة، سرعان ما يأتي بمردود مناقض تماماً، ولذا ترى كثيراً من أفكار الآباء

تصبح محل تندر بين الأبناء، حالما يخرجون من عباءة الأب ويخالطون غيره. وقد تكون هذه الأفكار صحيحة في ذاتها، ولكن المنع دائماً ما يثير الفضول، ويجلب الشك.

وهذا الأمر كما ينطبق على الأفراد والأسر، ينطبق على المجتمعات أيضاً. فأي مجتمع تقوم تربيته على التلقين، وعلى سياسة الخصوصية والانغلاق، وعدم الترحيب بتجربة الأفكار الجديدة، سينعم بالهدوء الداخلي، ويتمتع أفرادها بحالة من الوثوقية العالية، طالما بقي منغلقاً على نفسه، ومتوقفاً على أفرادها وأفكاره. ولكن الأمر سرعان ما ينقلب رأساً على عقب، عندما يخرج بعض أفرادها إلى مجتمعات أخرى يقوم تعليمها على التجربة والمقارنة، فتكشف لهم المقارنة أحادية أفكارهم، وتتلاشى لديهم حالة الوثوقية. وسرعان ما يتبنى معظمهم أفكار المجتمع الجديد، لأنها تبدو أكثر إقناعاً ومنطقية، بسبب قبولها للتجربة، ومرونتها في تقبل النتائج.

يعود أولئك الأفراد وقد أحاطهم المجتمع المغلق بهالة من التوجس راصداً كل تغيير، طراً عليهم بعين الشك والريبة. وفي المقابل ينظر هؤلاء إلى المجتمع بعين الناقد، الذي خرج من إطار الصورة، فهو يتفحص أجزائها من بعيد، ويقارن

بينها وبين الصور الأخرى. ومن هنا تنشب معركة البسوس بين المجتمع ذي الوثوقية العالية في أفكاره ونهج حياته، وبين أفراد الذين يسعون للتغيير بداعي اللحاق بركب التقدم والحضارة.

والمشكلة الكبرى تكمن في أن هؤلاء الأفراد يقومون بممارسة نوع من التلقين للمجتمع بوثوقية عالية في أفكارهم، التي اكتسبوها من تجاربهم الجديدة، فيعيدون الخطأ نفسه وهم لا يشعرون. يتحول بعدها الصراع إلى صراع أيديولوجي مرير، تكثر فيه الاتهامات، وتخفي الثقة، ويحل محلها الشك والريبة.

٢- استفادة الطفل من تجارب المربي لا تتجاوز ٣٠٪ في أفضل الحالات، فلا معنى لمنعه من التجربة، بحجة أننا قد خبرنا الأمر، وجربناه من قبل، بل إن مجرد السماح له بالتجربة يزيد من ثقته فيما نمده به من أفكار وتجارب. وكثيراً ما فضل الأطفال عدم المضي قدماً بمجرد السماح لهم بالتجربة، إذ إن المنع أو الحرمان يشعل في قلب الإنسان جذوة فضول لا تنطفئ. ألم تر أن كثيراً ممن حرم من ألعاب الطفولة وهو صبي عاد يلعبها كبيراً.

٣- الجمع بين الحرية والمسؤولية سر عظيم من أسرار نجاح التربية، فالحرية تمي ملكة الإبداع والابتكار عند الطفل،

والمسؤولية تحمله على التعلم، واكتساب المهارات، وتقدير
المواقف، ودراسة نتائج التجارب؛ لاستخلاص العبر منها. ولا
بد من اقترانهما معاً في كل الأنشطة التربوية، إذ الحرية بدون
مسؤولية تقود إلى الفوضى واللامبالاة، بينما المسؤولية بدون
حرية تنشئ إمعةً غير قادر على الحركة دون إذن.

٤- الحاجة إلى التقدير تُعدُّ من أهم الحاجات البشرية بعد
غرائز البقاء الأساسية. ومن هذا الباب ينبغي أن تدخل الأم
الحصيفة، فتشعر ابنها بمدى حاجتها إليه، وعظم أهميته
بالنسبة لها، وتكثر الثناء على صفاته الإيجابية، وعلى قدرته
الفاثقة على التعامل مع سلبياته.



الفصل الرابع

وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

بين السم والحمى

أ: قصة الوفاة^(١)

طيبة.. وقد هفت شوقاً للقاء حبيبها محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أن غاب عنها شهراً كاملاً في أثناء حجة الوداع. ما أطول الزمان، وما أشد قسوته على المكان! ألم يتصاحبا منذ أن خُلِقَ الكون؟ أم لأن الزمان ظرف مصاحب للحبيب، فلم يعد يشعر بالظرف المفارق له، فطالت أيامه ولياليه.

ولكن مهلاً! فقريباً سينتصف المكان من الزمان، وطيبة على موعد مع حبيبها، الذي ستحتضنه في جوفها، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

خواطر تتسلى بها طيبة، وهي تتشوق إلى طلعه مع ثنية الوداع. ليس البشر من ينتظر مقدمه ويفرح برؤيته فقط، بل حتى المدينة بجبالها وأشجارها وأحجارها. لقد كانت أسعد شيء به حين قدم عليها أول هجرته، فلقد تغيرت إلى الأبد منذ أن خطت القصواء عليها خطوتها الأولى. كان يحس بها، ويبادلها حباً بحب، بل كان يخبر أصحابه بذلك: «أحد جبل يحبنا ونحبه»^(٢).

(١) للاستزادة انظر: سيرة ابن هشام (٦/٥٥-٩٢)، والبداية والنهاية، لابن كثير (١٣٢-٢٤/٨).

(٢) متفق عليه: البخاري (رقم ٣٨٥٥)، ومسلم (رقم ٢٤٧٤).

اسمها الذي لازمها منذ أن سكنها العماليق لم يرضه لها،
فغيره إلى ما هو خير منه وأطيب: المدينة، طيبة، المباركة....

بل حتى حُمّاهما التي كانت علمًا بالإضافة إليها، دعا ربه فنقلت
عنها، فلم تعد وباءً عامًا كما كانت.

ما أعظم بركته عليها، تألفت به القلوب، حتى أصبح أهلها
إخوانًا بعد أن كانت نهبًا للدسائس والمؤامرات، ومسرحًا للحروب
والنزاعات، وما يوم بعث^(١) عنها ببعيد.

لقد غدت تسامي مكة شرفًا وفضلاً، فتلك حرمة الخليل
إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذه حرمة الخليل محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكن تلك
يجبى إليها ثمرات كل شيء، وهذه بورك في صاعها ومدها، وثمت
فرق بين الغني بغيره والغني بنفسه، وفي كل خير.

وأعظم من ذلك أن وحد الله به رؤيتها، وأعلى من شأن
رسالتها، حتى أصبحت «إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة
رب العباد».

ما أسعد طيبة وما أقر عينها! وهي ترى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
طالعًا عليها من ثنية الوداع، يحف به جمع يكل الطرف عن الإحاطة
به، بعد أن دخلها (ثاني اثنين) إبان هجرته.

(١) يوم بعث: معركة دامية شهيرة، حدثت في يثرب قبل الهجرة بخمس سنين، انتصرت
فيها قبيلة الأوس وحلفاؤها على الخزرج ومن حالفهم. قتل فيها عدد كبير من سادات
يثرب وزعمائها.

ولكن ذاكرة المكان المتطاولة تعلم علم اليقين أن اكتمال البدر مؤذن بنقصه:

إذا تم شئ بدا نقصه ترقب زوالاً إذا قيل تم

إنها السنة الماضية التي تعلمها الأرض، وتغفل عنها أجيال البشر المتعاقبة. وطيبة وهي تعلم ذلك، لا يحزنها سوى انقطاع نزول الوحي بين جنباتها، وإلا فلن يضيرها أن يظلم ظاهرها ليضيء باطنها. إنها وإن كانت ستفتقد خطواته المباركة في مناكبها، إلا أنها ستضم جسده الشريف في جوفها حتى يرث الله الأرض ومن عليها. فما تظنون أنها فاعلة بجسد من أفاض الله عليها بسببه بركات لا تنفد وفضائل لا تنقطع؟ إنها ولو لم تنه عن مس جسده لحفظته وفاء وحباً.

توالت الإرهاصات على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مشعرة بدنو أجله، فقد اكتمل الدين وتمت النعمة، وجاء نصر الله والفتح، ودخل الناس في الدين أفواجا. ودع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناس عامة في حجة الوداع، قائلاً: «إني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا»^(١).

أما المدينة فلها وداع خاص، خرج في ليلة مقمرة منتصف صفر إلى جبل أحد، فصلى على الشهداء صلاة مودع، ثم قفل راجعاً، ولكأني بأحد يرنو إليه بنظرة وداع وإجلال:

(١) سنن النسائي (رقم ٣٨٦٧)

وأحسن منك لم تر قط عيني وأكرم منك لم تلد النساء

وخرج ليلة أخرى إلى البقيع، فقال: السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهن لكم ما أصبحتم فيه بما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى. ثم بشر أهل البقيع قائلاً: «إنا بكم للاحقون».

وفي آخر يوم من صفر شهد جنازة في البقيع، فلما كان بالطريق راجعاً ارتفعت حرارته، وأخذ صداع شديد، فعصب على رأسه عصابة تخفف من وجعه. واتقدت عليه الحمى حتى كان يجد سورتها^(١) من فوق العصابة. عاد إلى بيته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوجد عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تشكي صداعاً وتقول: ورأساه، فقال: «بل أنا والله وارأساه». ثم قال: «يا عائشة: ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع ابهري من ذلك السم».^(٢)

استمرت شكواه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الحمى والصداع مدة ثلاثة عشر يوماً حتى توفاه الله. كان في أولها يدور بين بيوته حتى ضعف عن الحركة، فاستأذن أن يمرض في بيت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فانتقل إليها يتهدى بين الفضل بن العباس وعلي بن أبي طالب، وقدماه تخطان على الأرض خطأً، فمكث عندها آخر أسبوع من حياته.

(١) سورتها: شدة حرارتها.

(٢) رواه البخاري (رقم ٤١٦٥).

وقبل خمسة أيام من وفاته اشتدت عليه سورة الحمى، حتى أغمى عليه، فصبوا عليه سبع قرب من آبار شتى حتى أفاق وقال: «حسبكم، حسبكم»^(١).

أنس بعدها من نفسه خفة، فدخل المسجد وصلى بالناس وخطبهم على المنبر، فكان من ضمن ما قاله: «إن عبداً خيّرهُ اللهُ أن يؤتية من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختر ما عنده»^(٢). ففهمها أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وقعد يبكي، ويقول: فديناك بأبائنا وأمهاتنا. فجعل الناس يعجبون من فعل أبي بكر، كيف يبكي لعبد خيّرهُ اللهُ بين الدنيا والآخرة؟! لم يتفطنوا أن العبد المخير هو رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان أبو بكر أعلمهم وأفقههم.

كانت الحمى تارة تشتد برسول الله حتى يغمى عليه، ثم تخف به حتى يصلي بالناس، ويقرأ بهم سورة المرسلات كاملة في صلاة المغرب^(٣).

وفي صلاة العشاء زاد عليه المرض، فلم يستطع الذهاب للمسجد، وطفق الناس ينتظرونه، فنهض ليقوم فأغمى عليه طويلاً، ثم أفاق وقال: «أصلى الناس؟» فنهض ليقوم فأغمى عليه

(١) صحيح البخاري (رقم ٤١٧٨).

(٢) الترمذي (رقم ٣٦٦٠).

(٣) البخاري (رقم ٤١٦٦).

مرارًا، حتى أمر أبا بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فصلى بالناس بقية الصلوات، إلى أن توفى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفي صلاة الظهر قبل يومين من وفاته وجد من نفسه خفة، فخرج بين رجلين لصلاة الظهر، وأبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يصلي بالناس، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر، فأوماً إليه ألا يتأخر، وجلس إلى يسار أبي بكر، فكان أبو بكر يقتدي بصلاة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويسمع الناس التكبير.

انقطع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعدها عن المسجد، ولم يره الناس إلا في أثناء صلاة الفجر في آخر يوم من حياته. روى أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: بينما هم في صلاة الفجر يوم الإثنين، وأبو بكر يصلي بهم لم يفجأهم إلا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد كشف ستر حجرة عائشة، فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسم يضحك، فنكص أبو بكر على عقبه، ليصل إلى الصف، وظن أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يريد أن يخرج إلى الصلاة، وهم المسلمون أن يفتنوا في صلاتهم، فرحًا برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأشار إليهم بيده: أن أتوموا صلاتكم. ثم دخل الحجرة وأرعى الستر^(١).

فرح المسلمون بذلك فرحًا شديدًا، واستأذن أبو بكر في الخروج إلى بيته بالسنة، ظنًا منه بتعالي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

(١) البخاري (رقم ٤١٨٣).

وما علم أنها النظرة الأخيرة. لقد كانت نظرة وداع لصحب كرام،
أسوه بأنفسهم، وحكموه في أموالهم، وخالط حبه سويداء قلوبهم،
حتى غدا أحب إليهم من أنفسهم ومن الناس أجمعين. أنها نظرة
وداع للصلاة، قرّة عينه، وراحته من نصبه. وهي كذلك نظرة وداع
لمسجده الذي شيده بيده وعمر محرابه بتبتله وخشوعه، وصنع من
عريشه سقفا تقي إليه البشرية في حر جاهليتها اللاهب.

عادت الحمى لرسول الله كأشد ما كانت، وبدأ بالاحتضار
فجعل يدخل يديه في ركوة فيها ماء، ويمسح بها على وجهه، ويقول:
« لا إله إلا الله، إن للموت تسكرات ». ثم شخص بصره إلى السماء،
وهو يقول: « بل اللهم ألحقني بالرفيق الأعلى » ثلاث مرات^(١)،
فقبضت روحه، ومالت يده صلى الله عليه وسلم.



(١) البخاري (رقم ٤١٩٤).

ب : تحقيق سبب الوفاة^(١)

مما سبق إيراده يتضح أن لوفاة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبب مباشر، وهو الحمى وسبب آخر غير مباشر، وهو السم.

أما الحمى فالوصف المذكور في الأحاديث الصحيحة ينطبق انطباقاً كاملاً على حمى الملاريا، فجميع مرضى الملاريا تبدأ أعراضهم بالصداع تقريباً^(٢). أما نمط الحمى المذكور في الأحاديث فهو النمط المميز للملاريا، حيث تتقد حرارة المريض بشكل حاد لمدة ساعة أو ساعتين، ثم تنكسر سورتها، وترجع إلى المعدل الطبيعي، وربما نزلت عن المعدل أحياناً، ويصاحبها تعرق غزير. تعود الحرارة إلى الارتفاع مرة أخرى بعد يوم أو يومين، وربما كل أربعة أيام بحسب نوع الملاريا.

ولذا صلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمسلمين صلاة المغرب، وقرأ بهم سورة المرسلات كاملة^(٣)، وهي من أواسط المفصل، وسمعته أم الفضل بنت الحارث راوية الحديث، وهي في صفوف النساء البعيدة. وما أتت العشاء حتى عادت الحمى كأشد ما تكون ومنعته

(١) كتبت هذا التحقيق بعد مناقشات مستفيضة مع كل من: البروفيسور شهاب المشهداني، رئيس وحدة أمراض الدم بجامعة الملك سعود، والدكتور محمد الهليل، رئيس قسم السموم بمستشفى الحرس الوطني.

(2) <http://emedicine.medscape.com/article/221134-clinical>

(٣) سبق تخريجه.

عن الصلاة بالناس، ثم ما لبثت الحمى حتى هدأت عنه مرة أخرى، فعاد وصلى بالناس صلاة الظهر جالساً. وفي هذا السياق دليل واضح على نمط حمى الملاريا.

وبمرور الوقت تشدد وطأة الملاريا، وتؤثر على أجهزة الجسم المختلفة. حيث يؤدي فقر الدم الحاد إلى الانهك الشديد والضعف العام عن الحركة والمشى. وسرعان ما تتحول إلى ملاريا عصبية (Cerebral malaria) تؤثر على الجهاز العصبي، وتؤدي إلى الإغماء المتكرر، والتشنجات، ونقصان الوعي، ومن ثم الوفاة. وقد مر معنا تفصيل ذلك سابقاً.

أما السبب غير المباشر لوفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو السم، كما ورد في حديث عائشة الذي رواه البخاري^(١). وقصة السم حدثت بعد فتح خيبر في المحرم من السنة السابعة، عندما أهدت زينب بنت الحارث اليهودية شاة مسمومة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأكل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الذراع، وكان أكثر السم فيه، وأكل بعض الصحابة، فمات بشر بن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعصم الله نبيه من الموت غدراً واغتيالاً، وقتلت المرأة قصاصاً لبشر.

وبقي أثر السم على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واضحاً في مواضع من جلده، كما روى أنس في الحديث المتفق عليه: «فما زلت أعرفها في

(١) سبق تخريجه.

لهوات النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»^(١) أي في باطن حلقة. ولا شك أن آثار السم الداخلية كانت أعمق وأشد، كما سنوضح بعد قليل.

ويترجح عندي أن السم الذي دسسته اليهودية للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه يوم خيبر هو الزرنيخ (Arsenic)، وذلك وفقاً للشواهد التالية:

١- الزرنيخ هو أوسع السموم استخداماً في التاريخ، ويطلق عليه ملك السموم، وذلك لتوفره بشكل طبيعي في قشرة الأرض، وإمكانية استخدامه بعدة طرق كوضعه في الأكل أو الشرب أو شحذ السلاح به، بل حتى غاز الزرنيخ يمكن استخدامه كسلاح كيميائي في الحروب والنزاعات.

ومن الميزات الأخرى للزرنيخ: أنه لا طعم له ولا رائحة ولا لون مميز، ويتأخر ظهور الأعراض على المجني عليه لبضع الوقت، مما يوفر وقتاً للجاني في حال أراد الابتعاد.

٢- ورد في صفة موت بشر بن البراء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن لونه عاد كالتيلسان^(٢). قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: يعني أن لونه صار أصفر شديد الصفرة. والتيلسان وشاح أصفر غليظ يوضع على الكتف أشبه ما يكون بالشال. وهذا يتفق مع

(١) متفق عليه: البخاري (رقم ٢٦١٧)، ومسلم (رقم ٢١٩٠).

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (٢٤٧/١٠).

الأعراض المباشرة للتسمم بالزرنيخ، والتي تبدأ بتهيج الجلد والأغشية المبطنة للجهاز الهضمي، مما يؤدي إلى التقيؤ والإسهال وقد يصاحبها دم في الغالب.

وعند وصول الزرنيخ إلى مجرى الدم يؤدي إلى تكسر خلايا الدم مباشرة داخل الأوعية الدموية (Intravascular hemolysis)، ومن ثم إلى الصفار وفقر الدم الحاد.

واصفرار اللون ينشأ من تراكم البيلوروبين، وهو مادة صفراء تنشأ من تحلل الهيموغلوبين عند تكسر الخلايا، وبالإضافة إلى ذلك يساهم الشحوب الشديد الناشئ من فقر الدم الحاد في اصفرار الجلد أيضاً.

ويدل وصف الطيلسان كذلك على تغير سماكة الجلد، إذ إن من الآثار المميزة للتسمم بالزرنيخ زيادة سماكة الجلد (hyper-keratosis). وعند انتشاره في أعضاء الجسم يؤدي إلى سقوط الشعر، وفشل وظائف الأعضاء المختلفة: كالكبد والرئتين والكليتين، حيث يموت أغلب المرضى في حال عدم العلاج.

٣- إذا تجاوز المريض المرحلة الأولية الحادة، يتم إخراج الزرنيخ من بلازما الدم عن طريق الكلية، حيث يبلغ نصف عمره (half-life) ١١ ساعة تقريباً^(١). ويتخلص الجسم منه بعد

(1) <http://www.atsdr.cdc.gov.Arsenic>Toxicity>

أربع أسابيع تقريباً، لكن تبقى كميات مخزنة في الجلد والشعر والعظام تؤدي إلى الآثار طويلة الأمد، كتبقع الجلد وتثبيط عمل نخاع العظم (Aplastic anemia) ومن ثم إضعاف مناعة الجسم. كما يؤدي إلى ارتفاع الضغط المتعلق بأمراض القلب والأوعية الدموية^(١).

وهذه الأعراض كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعاني من بعضها، كتغير لون باطن حلقة المذكور في حديث أنس المتفق عليه، الذي مر ذكره آنفاً، والآلام التي كانت تعود بين الفينة والأخرى، التي ذكرها في حديث عائشة. أما تثبيط مقاومة الجسم للأمراض فلعله كان هو السبب وراء تفاقم حمى الملاريا، التي أصابته عند وفاته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ذكر بعضهم أن سبب موت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو (Aortic dissection) أو ما يسمى بتسلخ الأبهر عملاً بظاهر حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا «فهذا أوان انقطاع أبهري من ذلك السم»^(٢)، وهذا ليس دقيقاً، لأن الأعراض المذكورة في الأحاديث الصحيحة لا تتفق مع هذا المرض. فتسلخ الأبهر (Aortic dissection) يبدأ بالألم صدري مفاجئ وحاد جداً على

(1) Dangleben NL, Skibola CF, Smith MT. Arsenic immunotoxicity: a review. Environ Health. 2013;12(1):73

(٢) سبق تخريجه

هيئة طعنة السكين يصاحبه صعوبة في البلع بسبب الضغط على المريء.

والأبهر (Aorta) هو الشريان الرئيس في جسم الإنسان، ويخرج مباشرة من البطين الأيسر للقلب، بحيث تغذي تفرعاته جميع أجزاء الجسم. وانقطاع الأبهر داء حاد جداً بحيث يصل أغلب المرضى إلى الطوارئ وهو في حالة حرجة أو يموت قبل الوصول إلى المستشفى.

ولذا ينبغي أن يصرف الحديث عن ظاهره بقريئة الواقع، الذي وصفته الأحاديث الصحيحة، ويحمل على ما أثبتته العلم من الآثار طويلة الأمد لسم الزرنيخ على القلب والأوعية الدموية كارتفاع الضغط المتعلق بأمراض القلب والشرايين (-hyperten- sion-related cardiovascular disease).

وخلاصة ما سبق إيراده في سبب وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن مضاعفات سم الزرنيخ وآثاره طويلة الأمد قد ساهمت بشكل غير مباشر في إضعاف مقاومة جسده لحمى الملاريا حين أصابته بعد أربع سنين، فهو شهيد بالحمى وشهيد بالسم بأبي هو وأمي صلوات الله وسلامه عليه. والله أعلم.



ج: إضاءات طبية⁽¹⁾

الزرنِيخ هو عنصر ثقيل موجود في الطبيعة حيث يحتل المرتبة العشرين من ناحية وفرة في قشرة الأرض، وفي المرتبة الرابعة عشرة من ناحية توفره في المأكولات البحرية.

الأضرار الصحية للزرنِيخ: تاريخياً يعد الزرنِيخ أكثر السموم شيوعاً في حالات الاغتيالات والانتحارات، ولكن هذه النسبة تضاءلت كثيراً في الوقت الحالي بسبب سهولة الكشف عن الزرنِيخ، وبقائه لمدة طويلة في جسد الضحية. ولكن خطر الزرنِيخ لا يزال محدقاً من ناحية التعرض المزمن له، عن طريق مياه الشرب، أو عن طريق تناول المحصولات التي تسقى بمياه ملوثة بالزرنِيخ.

وطبقاً لمنظمة الصحة العالمية، فإن دولاً مثل بنغلاديش والصين والأرجنتين وتشيلي تعاني مشكلة حقيقة من زيادة نسب الزرنِيخ في مياه الشرب والري، مما تسبب في أضرار صحية مؤكدة⁽²⁾.

ويجدر بالذكر أن تدخين التبغ يحتوي على كميات عالية من الزرنِيخ، غير العضوي شديد السمية، لأن جذور التبغ تمتص الزرنِيخ الموجود في قشرة الأرض.

(1) [\(2\) <http://www.who.int/mediacentre/factsheets/fs372/ar>](http://www.atsdr.cdc.gov.Arsenic>Toxicity</p></div><div data-bbox=)

والزرنينخ مصنف من قبل الوكالة الدولية لأبحاث السرطان (IRAC) على أنه سبب مؤكد لسرطان الجلد والرتتين والمثانة وسرطان الدم^(١). وبالإضافة إلى ذلك فالزرنينخ مثبط للمناعة، سواء أدى إلى فشل نخاع العظم أو لم يؤدي إلى ذلك^(٢).

سبل الوقاية من أضرار الزرنينخ: مادة الزرنينخ واحدة من عشر مواد كيميائية، تعتبرها منظمة الصحة العالمية من الأخطار الرئيسية على الصحة العامة. وتوصي بمراقبة مياه الشرب خصوصاً، التي تتبع من المياه الجوفية، بحيث تحتوي على أقل من ١٠ ميكروغرام لكل لتر. ومن الضروري كذلك مراقبة نسبة الزرنينخ في محاصيل الأرز، التي تأتي من البلدان التي تحتوي تربتها على نسب عالية من الزرنينخ: كالصين وبنغلاديش وبعض مناطق الهند. وينبغي كذلك التوقف عن تدخين التبغ، لأنه يحتوي على كميات ضارة من الزرنينخ بالإضافة إلى أضراره الصحية الأخرى.

مما ينبغي ذكره هنا: أن المأكولات البحرية تحتوي على نسب عالية من الزرنينخ العضوي (Organic Arsenic)، وهو مركب غير ضار، إذ يتخلص منه الجسم مباشرة دون امتصاص.



(1) <http://www.who.int/mediacentre/factsheets/fs372/ar>

(2) Dangleben NL, Skibola CF, Smith MT. Arsenic immunotoxicity: a review. Environ Health. 2013;12(1):73

د : إشكال علمي

استشكل بعضهم كيف يموت النبي صلى الله عليه وسلم متأثراً بالسم الذي عملته اليهودية زينب بنت الحارث، وقد قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَاللَّهُ يَعَصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٧٦]. وقد أجاب أهل العلم على هذا، فذكروا أنه معصوم من القتل على وجه القهر والغلبة.

فقد عصمه الله عَزَّجَلَّ من القتل مراراً عديدة: كيوم أحد، وقد أحاطت به كتيبة فرسان قريش، ولم يكن معه سوى طلحة بن عبيد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بعد مقتل الأنصار واحداً تلو الآخر، وكقصة الأعرابي الذي رفع عليه السيف وهو نائم تحت شجرة فسقط السيف من يده، وسيرد معنا كيف عصمه الله عَزَّجَلَّ من عامر بن الطفيل وأربد بن قيس، عندما أرادا الفتك به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فلما أتم الله به النعمة، وأكمل به الدين، وأسلمت جزيرة العرب قاطبة، أراد الله عَزَّجَلَّ أن يجمع له بين أعلى المراتب مع النبوة والرسالة، وهي الشهادة في سبيل الله. وقد ذكر هذا جماعة من أهل العلم: كالزهري وابن مفلح في الآداب الشرعية^(١).

(١) الآداب الشرعية، لابن مفلح (٣/ ٧٧-٨١).

جاء في تفسير القرآن الكريم للشيخ ابن عثيمين: فإن قيل: كيف يصح قول الزهري: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مات شهيداً؛ لأن اليهود كانوا سبباً في قتله، وقد قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعصُّمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾؟ فالجواب: المراد بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعصُّمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ حال التبليغ؛ أي: بلغ وأنت في حال تبليغك معصوم، ولهذا لم يعتد عليه أحد أبداً في حال تبليغه^(١).

وروى البيهقي في دلائل النبوة أن عبد الله بن مسعود كان يحلف أن الله قد اتخذ رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شهيداً، كما اتخذته نبياً^(٢).



(١) تفسير القرآن الكريم سورة المائدة، لابن عثيمين (ص ١٥٣-١٥٤).
(٢) دلائل النبوة (١٧٢/٧)، وأخرجه الحاكم في المستدرک (٥٨/٢)، وصححه، فقال: على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي.

الفصل الخامس

عامر بن الطفيل

«غدة كغدة البعير وموت في بيت سلوية»

أ: قصة عامر بن الطفيل^(١)

عالية نجد، حيث يقف جبل «جبل»^(٢) كالقلعة السماء، يطاول عنان السماء، ويحرس السهل الممتد الأفق على جهاته الأربع. إنه المعقل الباذخ الذي أخذ من السماء سناءها، ومن الأرض ماءها ولم تعمل فيه يد، ولم يجر فيه معول. لكن ذنبه أنه وحيد في نجد فلا حصون ولا قلاع، فهو كالحسنة التي جهل الناس قدرها، إذ لم تجد من يساميتها أو ينافس جمالها.

ليس من شأن العرب أن تبني القلاع أو تشيد الحصون، وإنما منعتهم في حد سيوفهم، وحصونهم سروج خيولهم. ولكن الأمر مختلف هذه المرة، فقد تألبت الملوك على قبيلة عامر بن صعصعة، ورمتهم العرب عن قوس واحدة، وجاءهم جيش لا قبل لهم به، حتى لم يشك أحد أنه فناؤهم واستئصال شأفتهم. ولكن العبقريّة سرعان ما حولت الضعف إلى قوة، والقلّة إلى كثرة، عندما اعتصمت بالجبل، واتخذته حصناً.

(١) للاستزادة من أخبار عامر بن الطفيل وقصة مقدمه على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، انظر: الشعر والشعراء (١/ ٢٣٥)، والبداية والنهاية (٧/ ٢٧٦)، وسيرة ابن هشام (٥/ ٢٦٠).

(٢) جبل: هضبة صخرية عملاقة تتوسط نجد، لها مدخل واحد من جهة الشرق، يسمى شعب جبل. وهي ذات بعد تاريخي وأدبي، وتمتاز بأشجارها ومراعيها الخصبة. تنسب إليها العديد من القصص والأساطير العربية.

دخل بنو عامر في شعب جبلة^(١)، ورفعوا ذراريهم إلى قلة الجبل^(٢)، وأقام الفرسان في منتصف الجبل على ثمل الماء. أما الإبل فقد جعلوها في فم الشعب، وأعطشوها عشر ليال.

أقبلت الجيوش، وأحاطت بهم من كل جانب، وما لبثوا حتى اقتحموا عليهم الشعب، ومضوا مصعدين في عرض الجبل، ولم يعلموا أي مكيدة وقعوا فيها. فلما اقتربوا من الإبل حل العامريون عقلها، واتبعوا كل بغير حجرين أو ثلاثة، فأقبلت الإبل تحطم كل شئ أمامها، وخبطت الناس حتى فرقت جمعهم، وشتتت شملهم، فتبعها فرسان بني عامر يقتلون ويأسرون، وانهزم الجيش هزيمة نكراء، وانتصرت عامر وأحلافها نصرًا مؤزرًا.

انتهت المعركة ورجع الطفيل بن مالك العامري، ليجد زوجته الحبيبة وقد تسمرت ولادتها، وشارفت على الوفاة. حاول إنقاذها بشتى الطرق التي تعرفها العرب، فلم يجد ذلك نفعًا حتى ماتت زوجته أمام ناظريه.

خطرت له فكرة الأمعية ربما أنقذت حياة الجنين، رمحه الذي طالما انبعث الموت كريها من سنانه، ألا تخرج الحياة زاكية من نصله؟

(١) شعب جبلة: يوم من أعظم أيام العرب في الجاهلية، وقع قبل الإسلام ٥٧ سنة، انتصرت فيه عامر وعيس على تميم وأحلافها من ملوك هجر والحيرة.

(٢) قلة الجبل: أعلى قمته.

عجباً! إن الأداة هي نفس الأداة، بل اليد هي نفس اليد، ولكن
القصد غير القصد، وبينهما ما بين الحياة والموت من تضاد
وتناقض.

التقط رمحه بلمح البرق، ثم ألقاه بنفس السرعة التي أخذه
بها. انتابه خاطر غريب، فهذه أول مرة يمسك فيها برمحه للطعان،
ثم يرمي به دون أن يرى أثر الدم يسيل من حده.

نظر إلى وجهها الشاحب نظرة المذنب النادم إلى الضحية
البريئة، التي طالما محضته صادق الود في السراء، وضمدت جراحه
في الضراء. أيكون وداعها يوم فراقها الأبدي أن يبقر بطنها ويشق
أحشاءها؟ أشاح بوجهه بعيداً، وهو يلعن الحرب التي جعلت منه
وحشاً، لا ينفق ذهنه إلا عن هواجس الطعن والضرب والرمي.

ابتعد عن الخيمة قليلاً، فعادت الفكرة الملحة إلى ذهنه
المضطرب، ألا يزال الجنين الذي طالما سعدا بتقلبه في أحشائها
حيّاً؟ أتقذ حياته طعنة رمح طالما خطفت أرواح الفرسان
الصناديد؟

رجع إليها مسرعاً، ونظر إليها بهدوء نظرة الطفل الذي قدر
له ألا يرى أمه إلا يوم وفاتها. خاطبته روحها. روح الأم الرؤوم التي
ضحت بنفسها لأجل جنينها: اقدم ولا تحجم، بل أسرع، علك أن
تدرك ما بقي في الجنين من نفس.

التقط رمحه مرة أخرى، كما يلتقط الجراح الحاذق مبضعه،
وشق بطنها برفق، وأخرج «عامر» قد ازرق لونه صارخاً بصوت
ضعيف.

نعم.. إنه عامر تفاقلاً بطول عمره وسلامته، وعلى اسم جده
الأكبر عامر ابن صعصعة.

نشأ عامر بين أترابه نشأة الأبطال، يردد مآثر قومه وبطولات
آبائه، وينتقل مع قبيلته في أنحاء نجد شتاء، وفي أكناف الطائف
صيفاً. وما أن شب عن الطوق حتى طارت بأخبار فروسيته الركبان،
وبلغ من شجاعته أن عد رابع أربعة انتهت إليهم شجاعة العرب.

يقول فارس العرب عمرو بن معدي كرب: لو وردت على مياه
العرب كلها ما باليت بأحد إلا أن يكون عامر بن الطفيل، أو عتبية
ابن الحارث، أو عنتره ابن شداد، أو السليك ابن السلكة^(١).

وبالإضافة إلى شجاعته النادرة، وحسبه الكريم، فهو شاعر
مجيد:

واني وإن كنت ابن فارس عامر

وسيدها المشهور في كل موكب

(١) بلوغ الأرب (١٢٧/٢). وعتبية بن الحارث بن شهاب التميمي فارس بني يربوع في
الجاهلية، كان يسمى صياد الفوارس. والسليك بن عمير السعدي التميمي، والسلكة هي
أمه، وقد نسب إليها، فغلبت على اسم أبيه، فارس صلوك، وكان من العدائين، الذين لا
تلحقهم الخيل.

فما سودتني عامر عن وراثته
أبى الله أن أسمو بأُم ولا أب
ولكنني أحمى حماها وأتقي أذاها
وأرمي من رماها بمنكبي

فلم يتكل على نسبه، بل اعتمد على نفسه، مع أنه من أشرف العرب بيتاً وأكرمهم محتداً، فهو سليل أسرة عريقة في المجد والزعامة، ضاربة في الشجاعة والشعر والكرم بالنصيب الأوفى، فعمه أبو البراء عامر بن مالك⁽¹⁾ ملاعب الأسنة، وابن عمه ليبيد ابن ربيعة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ شاعر المعلقات المعروف. أما أبوه الطفيل بن مالك فهو سيد عامر وفارسها المشهور.

بزغ فجر الإسلام من مكة، وبدأ ضوؤه يتخلل جزيرة العرب، ولم تكن العرب لتقبل هذا الدين الجديد الذي يسعى لتغيير كافة نظم الحياة، ولكنها أوكلت مهمة التصدي للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأهل مكة، فهم سادة البيت، وأرباب التجارة في جزيرة العرب كلها. وطفق العرب يقولون: هم أهله وقد حاربوه، فإن ظفر بهم فهو نبي، وإلا فقد كفيتموه.

(1) أبو براء عامر بن مالك سيد بني عامر بن صعصعة، وأحد فرسانهم العدودين، كان مضرب المثل في الشجاعة، حتى سمي بملاعب الأسنة. عُمِّرَ طويلاً، حتى أدرك الإسلام، ووفد على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يسلم.

تتابعت الأحداث عجلى، وعامر بن الطفيل منكم في غزواته وحروبه مع القبائل الأخرى من يوم الرقم^(١) إلى يوم فيف الريح^(٢). وبعد صلح الحديبية استشعر سادة العرب، ومنهم عامر بن الطفيل: أن نجم الاسلام قد بدأ يعلو مهدداً بتقويض صروح الجاهلية، فالدين الجديد ليس عقيدة فقط، بل هو تغيير شامل لنظام الحياة بمفهومها الواسع. حتى معايير السيادة والفخر والكرم لم تعد بالأحساب والأنساب، بل أصبح الناس سواسية، لا فرق بينهم إلا بالتقوى.

ما إن أدرك عامر هذا الأمر حتى قرر أن يتفاوض مع قائد هذا الدين الجديد في يثرب. تاهب للسفر، وأعد للأمر عدته، وقد قرر أن يسلم على أن يكون له الأمر من بعد محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لكن! لماذا أصر على أن يصحبه أربد بن قيس^(٣)، وهو فاتك من فتاك العرب المشهورين؟ لا بد أن وراء الأكمة ما وراءها.

(١) الرقم: يوم انتصرت فيه غطفان على عامر، وكان عامر بن الطفيل شاباً، وله ذكر في ذلك اليوم.

(٢) فيف الريح: يوم عظيم، جرى بين قبيلة عامر والحارث بن كعب وأحلافها، وكان الصبر والشرف فيه لعامر. وقد وقع هذا اليوم في السنة الخامسة بعد الهجرة تقريباً.

(٣) أربد بن قيس العامري أحد فتاك العرب وقرسانها المشهورون، أراد أن يفتك بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعصمه الله، ورجع أربد إلى قومه، فنزلت عليه صاعقة فأحرقته. رثاه لبيد بن ربيعة، وكان أخاه لأمه.

خرج الركب من ضرية^(١) تخب بهم المطي، ميمماً شطر الغرب إلى يثرب، وفي نفس عامر شيء من الانقباض! ماذا لو أجاب محمد شرطه، ووافق على أن يكون له الأمر من بعده؟ أيغدو تابعاً له بعد أن كان متبوعاً بشكل مطلق؟ كيف وقد أقسم: ألا يموت حتى تتبعه العرب قاطبة، ثم ها هو يغدو تابعاً لفتى من قريش؟ تساؤلات ملحة كادت أن تثنيه عن عزمه، وتعود به أدراجة، ولما يبلغ الركب جبل رحرحان^(٢) بعد.

تشجع قليلاً حين خطر له أن هذا الشرط قد يضمن له سرعة نجاح مشروعه في توحيد العرب تحت رايته، وعلى كل حال إن وصلت المفاوضات إلى طريق مسدود، فأربد حاضر موجود!

أناخ الركب على مرحلة من المدينة، وبات عامر يعد الخطة، الخيارات واضحة ومحددة، وليس ثمت أنصاف حلول، انفرد بأربد، ثم قال له: إن محمداً لا يحرسه حارس، ولا يحجبه حاجب، وسأفأوضه على أن يكون لي الأمر من بعده، فإن أجاب فبها ونعمت، وإن أبى فأتته من خلفه، ثم اعله بالسيف، وأنا أشغل عنك وجهه. هز أربد رأسه مبدياً موافقته، ولم ينبس ببنت شفه.

(١) ضرية: قرية شهيرة ضاربة في أعماق التاريخ، سميت بضرية بنت ربيعة بن نزار، وهي منزل من أشهر منازل طريق الحج البصري. اتخذها كليب وائل حمى لرعي إبله، ثم جعلها عمر رضي الله عنه حمى لإبل الصدقة. واليوم هي إحدى محافظات منطقة القصيم.

(٢) جبل رحرحان: جبل شهير يقع قريباً من الربة على بعد ١٥٠ كلم شرق المدينة.

دخل عامر المدينة وقد تغير فيها كل شيء منذ أن زارها آخر مرة قبل عشر سنين. أين حانات يهود بني قريظة، أم أين مزارع بني النضير، بل أين بنوقينقاع صاغة الذهب وتجاره في الجزيرة كلها. لقد تشتت القوم، فلا أنيس ولا مخبر.

لم يتغير بناء المدينة كثيراً فالحصون هي الحصون، والدور هي الدور، لكن تغيرت الوجوه فلم يعد يعرف منها أحد تقريباً. صاح عامر بالناس على عادة الأعراب: أين محمد؟ دلوني على محمد؟ نظر الناس إليه شزراً، ثم قالوا بهدوء: في المسجد.

المسجد! ما هذه المفردة الغريبة، التي لم يسمع بها عامر من قبل وهو من عليا هوازن؟ أبلغ بهذا الدين أن يغير حتى لغة الناس؟ أين المسجد؟ قالها بهدوء ينم عن سخرية وغضب خافت. أشار الناس إلى بناء مستطيل، يتوسط الدور، مشيد بالطين، مسقوف بجرائد النخل.

دخل عامر وهو يتصنع الأنفة، وكأنه يريد إخفاء دهشته، وربما وجهه حتى عن رفاقه. رأى منظرًا لم يره عند ملوك اليمن، ولم يسمع به حتى عند كسرى وقيصر، الناس أوزاعًا متفرقين، بين قائم وساجد، على حصباء خشنة، حيث لا بسط ولا فرش، فضلاً عن وجود عرش يجلس عليه الملك.

ما سر هذا الرجل؟ بل ما سر هذا الدين، الذي غير يثرب كلها في طرفة عين؟

عامر! صوت هادىء جاء من أقصى المسجد، قطع عليه تأمله، وذكره بشيء من كبريائه، فعلى الأقل ثمت من يعرفه في هذا المكان. التفت نحو صاحب الصوت، وتقرس في ملامحه، فعرف أنه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو من لا تخطئه العين: روعةً وهيبةً وجلالاً.

اتجه إليه حتى جلس بين يديه، فبادره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قائلاً: «هل لك أن تسلم، ولك أعنة الخيل؟»، أي قيادة الجيش. لم يكن هذا العرض مغرياً لعامر، فبادر قائلاً: بل أسلم على أن يكون لي الأمر من بعدك. فأبى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال له: «بل لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم»^(١).

فجعل عامر يطيل الكلام، وينتظر أربد أن يقوم فيفتك به، وأربد ساكن لا يحير شيئاً. قام عامر مسرعاً، ووقف على باب المسجد صارخاً: والله لأملأن المدينة عليك خيلاً جرداً ورجالاً مردداً، ولأربطن بكل نخلة فرساً. فلما ولى قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهم اكفني عامر بن الطفيل، واهد قومه»^(٢).

(١) المعجم الكبير، للطبراني (١٠/٢٧٩)، ورواه في الأوسط أيضاً (٩١٢٣).

(٢) المعجم الكبير، للطبراني (١٠/٢٨٠).

خرج عامر مغضباً، يكاد يتميز من الغيظ على أربد بن قيس، لما رأى من تأخره وإحجامه عن قتل محمد، وقال له: ويلك! أين ما كنت أمرتك به؟ واللّه ما كان على ظهر الأرض رجل هو أخوف عندي على نفسي منك، وايم اللّه لا أخافك بعدها أبداً فقال أربد: لا تعجل عليّ، واللّه ما هممت بضربه، إلا رأيتك بيني وبينه، حتى ما أرى غيرك، أفأضربك بالسيف؟!

قفل عامر راجعاً إلى بلاد قومه كئيباً، قد انقطع أمله، ولم تتجح خطته، فما لبث أن أصابته الحمى، ووهن عن المسير، فأقام عند قبيلة سلول، ولسان حاله يقول:

وقد طوفت بالآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب^(١)

بات ليلة في بيت امرأة من بني سلول، وقد بلغت به الحمى أشدها، فأصبح وقد خرجت له غدة تحت ذقنه، فما زالت تكبر حتى شارف على الموت بعد ثلاث ليال، فجعل يتحسسها، ويقول: (غدة كغدة البعير، وموت في بيت سلولية)^(٢).

(١) البيت لإمرئ القيس بن حجر من قصيدة قالها آخر حياته.

(٢) هذه العبارة خرجت مخرج التأسف والحسرة، وكأنه يقول: أي ذل بعد هذا؟ فهو لم يقتل في ميدان البطولة، كما يتمنى الفرسان، بل مات حتف أنفه، وقد خرجت غدته من جانب فمه كالبعير، ولم يمض في ديار قومه أو في ضيافة قبيلة لها شرف وذكر، وإنما في ضيافة امرأة من قبيلة سلول، وهي قبيلة تحتقرها العرب!

فما لبث أن مات، فجعلت عامر قبره حمى لا يرعى، ولا يسلكه
راكب ولا ماش.

وكان جبار بن سلمى - أحد سادات بني عامر - غائباً، فلما
قدم قال: ما هذه الأنصاب؟ قالوا: حمى على قبر عامر بن الطفيل.
قال: ضيقتم على أبي علي، إن أبا علي قد فضل على الناس بثلاث:
كان والله لا يضل حتى يضل النجم، ولا يعطش حتى يعطش البعير،
ولا يهاب حتى يهاب السيل، وكان والله خير ما يكون حين لا تظن
نفس بنفس خيراً، يا بني عامر اجعلوا حمى قبره ميلاً في ميل^(١).



(١) بلوغ الأرب (٢/ ١٢٨).

ب: تحقيق سبب الوفاة

جمع شواهد القصة يدل على أن سبب موت عامر بن الطفيل هو سرطان ليمفاوي، يدعى بيركت ليمفوما (Burkitt lymphoma)، وذلك استناداً على الدلائل التالية:

١- بيركت ليمفوما هو أسرع السرطانات نمواً على الإطلاق، حيث تتضاعف الخلايا السرطانية كل ٢٤ ساعة. ويخرج غالباً على شكل ورم في عظم الفك السفلي، ويتضخم بسرعة مذهلة، مما يؤدي إلى خروج جزء من الورم من أحد جانبي الفم، فيما يشبه لهأة البعير. وسرعان ما يقود تضخم الأورام في منطقة الفك وأسفل الحلق إلى إغلاق مجرى التنفس، ومن ثم القضاء على المريض في وقت قصير^(١).

ومع صعوبة التأكد من الوقت الذي مر منذ ظهور الأعراض الأولية للمرض على عامر بن الطفيل حتى وفاته، إلا أن المؤكد أن المدة كلها لا تزيد عن الشهر. أما المدة التي مرت بين تضخم الورم حتى كان غدة كغدة البعير وبين وفاته، فهي ثلاثة أيام^(٢). فقد روى ابن كثير عن الأوزاعي: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(1) WHO Classification of Tumours of Haematopoietic and Lymphoid Tissue

(٢) الشعر والشعراء (١/ ٢٣٥).

مكث يدعو على عامر بن الطفيل ثلاثين صباحًا: «اللهم اكفني عامر بن الطفيل بما شئت، وابعث عليه ما يقتله»^(١)، وكان قبل ذلك هو من قتل أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بئر معونة.

٢- بيركت ليمفوما هو سرطان ليمفاوي يكثر في مناطق الإصابة بالمalaria، وسمي المرض نسبة للجراح الإيرلندي دنيس بيركت الذي وصفه عام ١٩٥٦ إبان إقامته في أفريقيا الإستوائية، حيث كانت المalaria تنتشر بشكل وبائي هناك.

وتشير الدلالات التاريخية إلى أن المدينة المنورة كانت من أشهر مواطن حمى المalaria في الجزيرة، حتى عرفت باسمها (حمى يثرب). وليس هذا مختصًا بالمدينة فقط، بل كان يشمل أغلب مياه العرب الدائمة، كخيبر، حيث تتوافر الرطوبة والحرارة المناسبة لتكاثر البعوض، الذي ينقل بيوض المalaria^(٢).

٣- الحمى عرض عام للأمراض عديدة، ولكن شدتها ونمطها يختلفان من مرض لآخر، فالحمى الشديدة التي تستمر لعدة ساعات، ثم تزول بعد التعرق الكثير، لتعود بعد يومين أو ثلاثة هو نمط مميز للمalaria. وكانت العرب تعرفها، وتسميها:

(١) البداية والنهاية (٧/ ٢٧٨)، وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٣٢٠).

(٢) مختصر تاريخ الطب العربي (١/ ١٩١-٢١٥).

(حمى يثرب) ويتقونها بالتعشير^(١). أما الحمى المستمرة بدرجة متوسطة إلى خفيفة، فهي عرض مصاحب لأغلب حالات السرطان الليمفاوي.

وعلى الرغم من أن المصادر المتوافرة بين أيدينا لم تشر إلى نمط الحمى التي أصابت عامراً قبل وفاته، إلا أن ما يغلب على الظن أنها كانت حمى مرتبطة بالسرطان الليمفاوي، الذي أصابه ولا تشبه حمى يثرب، ولو كانت تماثلها لنقل ذلك إلينا، والله أعلم.



(١) التعشير: خرافة يفعلها بعض العرب، لمنع الإصابة بالحمى، وذلك بأن ينهق كالحمار عشر مرات عند دخول يثرب أو خيبر!

ج: إضاءات طبية⁽¹⁾

بيركت ليمفوما هو سرطان بالغ الخطورة، سريع الانتشار يصيب الخلايا الليمفاوية البائية (B-Lymphocytes) بسبب طفرة جينية مكتسبة، تؤدي إلى اختلال عمل جين سي ميك (C-MYC) المسؤول عن انقسام نوى الخلايا.

وتحدث هذه الطفرة بسبب ضعف المناعة أو بسبب العدوى المزمنة بطفيل الملاريا أو فيروس ابشتاين بار (Epstein barr virus)، وفي كثير من الأحيان لا يوجد سبب واضح، يمكن أن يعزى إليه حدوث هذا المرض.

تشخيص المرض:

يتمثل مرض بيركت ليمفوما على هيئة ورم في عظام الوجه والفك السفلي خصوصاً، وقد يصيب الجهاز الهضمي في مناطق مختلفة كالأمعاء والمعدة. وما يلبث هذا الورم أن يتضخم بشكل سريع جداً، وقد يصاحبه حرارة وتعرق ليلي ونقصان في الوزن. تحت المجهر يظهر الورم على هيئة السماء المليئة بالنجوم (Starry Sky) ويتكون من خلايا سرطانية متماثلة في الحجم والشكل، تحتوي فجوات دهنية عديدة في السيتوبلازم.

(1) WHO Classification of Tumours of Haematopoietic and Lymphoid Tissue

ويتم التأكد من صحة تشخيص مرض بيركت ليفوما عن طريق علم الوراثة الخلوي، حيث تتميز بوجود اختلال في عمل جين سي ميك (C-MYC) بسبب طفرة (٨،١٤) أو غيرها من الطفرات.

علاج المرض :

مع شدة خطورة المريض إلا أنه يستجيب بشكل رائع للعلاج الكيماوي المكثف، إذ تبلغ نسبة الشفاء في المراحل الأولية من المرض ٩٠٪، ولكنها تقل إلى نسبة ٤٠٪ في المراحل المتقدمة عالية الخطورة.

سبل الوقاية من المرض :

نظراً لارتباط أنواع معينة من ليمفومة بيركت بمرض نقص المناعة المكتسب (HIV)، فإنه ينبغي تجنب الإصابة بهذا الفيروس عن طريق الابتعاد عن الممارسات الجنسية المحرمة، واتخاذ السبل الوقائية التي تمنع انتشاره عن طريق الدم الملوث بهذا الفيروس.

ومن الضروري كذلك القضاء على طفيل الملاريا وعلاج الالتهابات الفيروسية المزمنة، لأنها عاملان رئيسان في حدوث المرض.



الفصل السادس

العدسة

أول عذاب أبي لهب

أ - قصة وفاة أبي لهب^(١)

مكة.. وقد قذفت بساداتها وفلذات أكبادها، نجدة لأبي سفيان، وحرباً على من قطع شريان تجارتها، وهدد مكانتها. قد خلت من شيوخها فضلاً عن شبابها وأشرافها، حتى أمية بن خلف - الشيخ الثقيل - أراد أن يتخلف عن النفير، فقرب له عقبة بن أبي معيط بخوراً، وقال له: أبا علي، خذ إنما أنت من النساء. فحمي الشيخ، وتجهز وخرج.

لكن ما بال عبد العزى بن عبد المطلب (أبي لهب) قاعداً، وقد خرج القوم حتى العباس بن عبد المطلب. ألم يشد أبو جهل على جميع بني هاشم، ويخرجهم قسراً للحرب؟ ثم أليس في خروجه لحرب ابن أخيه مدعاة لخروج غيره من باب أولى؟

على كل حال لم يشأ هو أن يخرج، ولم يطلب منه أحد ذلك، وإنما تظاهر بإسقاط دينه عن العاص بن هشام - أخي أبي جهل - مقابل أن يخرج نيابة عنه.

عجباً! أيجتاج العاص بن هشام لمثل هذا العرض، حتى يخرج في جيش يقوده أخوه!

(١) للاستزادة انظر: البداية والنهاية ج ٨ ص ١٢٢ وسيرة ابن هشام ج ٣ ص ١٩٦ - ١٩٨.

تملأ أبو لهب في بيته الخالي بعد وفاة زوجته أروى - أم جميل - منذ عدة أشهر. انتابته غصة مرة حين نظر إلى قرحته، التي يخفيها تحت إبطه حتى عن أبنائه.

أشاح بوجهه بعيداً وهو يسترجع ملامح الحارث بن كعدة، وهو يتفحصها ببصره دون أن يلمسها. أحس بشيء من النقمة على هذا الطبيب، الذي يزعم أنه طبيب العرب، ثم لا يحرك ساكناً لعلاجه، بل حتى الكي رفض أن يقوم به.

ماذا يعني هذا الأمر؟ ثم لماذا طلب منه بلهجة حازمة ألا يخالط أحداً؟ وهل علم الناس بدائه؟ ماذا عسى أن تقول العرب إن هي علمت؟ تساؤلات مزعجة تدور في رأسه، كلما خلا بنفسه، ونظر إلى قرحته، حتى أصبح يكره العزلة، ويقضي وقته بين تجارته ببطحاء مكة وبين نادي قومه عند الكعبة.

ولكن العزلة أصبحت إجبارية هذه الأيام، بعد أن خرجت التجارة مع العير، وخرج القوم مع النفير، فلم يبق في مكة إلا النساء وبعض العبيد.

خطر له خاطر مرعب، وهو يتذكر عدم مبالاة أبي جهل بخروجه مع الجيش. هل انكشف أمره لأبي جهل؟ هل أخبره الحارث بن كعدة بحقيقة مرضه؟ أم أن هذا القائد الجشع فرح بإسقاط

الدين عن أخيه، فلم يشدد عليه في الخروج خشية أن يتراجع عن هذا العرض المغربي.

أحس بالاختناق فخرج من الدار ووقف عند بابها، وجعل يلتفت يمناً ويسرة إلى دور بني هاشم وبني عبد المطلب، وقد غدت أبوابها شرعاً للريح، ونهباً لعوادي الزمن بعد أن كانت قبلة للطارق، ومنتدى لإدارة شؤون الحرم. لم يحتمل هذا المنظر الذي يقطر حزناً، ويفيض أسىً، فخرج مسرعاً يحث الخطى نحو الكعبة.

لم يكن المشهد أحسن حالاً، فليس سوى ثمت نساء من الحمس يطفن بالكعبة، ويتمسحن بأنصابها.

اشتد به الضجر، فصعد الصفا أملاً في نفحة نسيم تذهب عنه شيئاً مما يجد في نفسه. أحس بالوهن يسري في جسده، فاستقرت تحت صخرة ملساء في عرض الجبل. ارتاحت نفسه قليلاً، وتسلى عن خواطره المزعجة، وهو يتابع أنفاسه المتلاحقة، وكأنما أنساه نصب جسده هم فؤاده.

الصفا... ما الذي جاء به إلى الصفا؟ ألم ينقلب مجرى حياته رأساً على عقب عند سفحه، بعد أن قال كلمته الشهيرة: (تبا لك سائر اليوم! ألهذا جمعتنا؟). ليأتيه الرد صاعقاً ومؤملاً: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ، وَمَا كَسَبَ﴾ [السد: ١-٥].

عادت له المرارة وهو يتساءل عن جدوى قيامه بمثل هذا الاستعراض أمام قريش كلها. لقد جر عليه وعلى بني هاشم داءً وبيلاً، بلغ به أن يشارك في حصارهم في الشعب ثلاث سنين.

أين موقفه هذا من موقف إخوته الآخرين؟ لقد قام أبو طالب بموقف تمليه عليه عربوته ونخوته، ولم يتخل عن دين آبائه وأجداده.

أما العباس فقد أسلم خفية وانصرف نحو تجارته، متمسكاً بماثر قومه الفاضلة: كالسقاية والرفادة، ثم ها هو قد خرج مع قريش لبدر، فإن انتصر محمد ألقى بيديه في الإسار فأكرمه ومن عليه، وإن انتصرت قريش شفع فيمن قدر عليه من قومه.

أما هو فقد وقف موقفاً لم يقفه عربي قط: خذل قومه، وحاصر نساءهم وأطفالهم، وبالغ في إيذاء جاره القريب، لأجل أن ينال حظوة عند علية القوم، يصلح بها أود تجارته.

تدارك أبو لهب نفسه اللوامة قبل أن يستفحل أمرها، ويعلو صوتها وزجرها قائلاً: أي هجاء أبلغ مما يتلوه محمد فيّ وفي أهل بيتي، ويقول: إنه نزل عليه من السماء؟ أي دعوة أعظم من دعوته على ابني البكر عتبة، ليفترسه الأسد على مرأى من رفقته ومسمع، فلا ينجده أحد ولا يغيثه مغيث؟

تأججت نار حقه في صدره، وهو يتخيل ابنه بين فكي السبع، وقد عم صراخه الأرجاء، فعض على إبهامه، وقال بصوت خافت: سيشفى غليل صدري عما قريب، ليتني خرجت مع جيش مكة، لأرى مصارع محمد وأصحابه.

رجع أبولهب ثقيل الخطى إلى بيته، وهو يمني نفسه بخبر سار، يزيل ما لحق به من ألم، فها هي مكة قد حسمت أمرها أخيراً، وأخرجت جيشها الجرار، الذي تهابه العرب قاطبة. فما عسى أن يفعل محمد وأصحابه، حتى لو خرجت يثرب كلها معه. ما هي إلا جولة واحدة، فإذا هم بين قتيل مجندل، وشريد هارب، وأسير مصفد.

سرعان ما ينتهي هذا الكابوس، وتعود مكة إلى ما كانت عليه قبل خمسة عشر عاماً. لا بد أن ملأ قريش قد حفظوا له صنيعه في حربه المتواصلة مع دين محمد منذ حادثة الصفا إلى اليوم. وربما أعادت له قريش كل مفاخر جده الأعلى قصي بن كلاب.

ألا يستحق ذلك وقد ضحى بسمعته ومبادئه، بل حتى وقاره وهيبته، وهو يتبع محمداً في أيام منى، ويقول: صابئ، كذاب.

أحس بشئ من الطاقة يسري في جسده، وهو يسترسل في خيالاته وأمانياته التي أنسته قرحته المتفاقمة.

أقام أبو لهب على هذا الشأن ليالي عدة، لا يعكر مزاجه سوى هينمة النساء برؤيا عاتكة^(١) بين الفينة والأخرى. وفي كل مرة يخرج إليهن، ويصرخ في وجوههن، فيصمتن جميعاً، ثم يرجع إلى معتكفه ساخراً من تعلق النساء بالرؤى والأحلام.

وما لبثت مكة أن طرقها النعي ليلاً بشعر أمية بن أبي الصلت^(٢):

هلا بكيت على الكرام	بني الكرام أولي المماح
كبكا الحمام على فروع	الأيك في الغصن النوائح
من يبكهم بيكي على	حزن ويصدق كل مادح
ألا ترون لما أرى	ولقد يبين لكل لامح
أن قد تغير بطن مكة	فهي موحشة الأباطح

(١) روى ابن هشام أن عاتكة بنت عبد المطلب رأت أن راكباً أقبل على بعيره، حتى وقف بأبطح مكة، ثم صرخ بأعلى صوته: انفروا إلى مصارعكم، فاجتمع الناس إليه، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه حتى صعد به جملة ظهر الكعبة! فصرخ انفروا إلى مصارعكم. ثم صعد على جبل أبي قبيس فصرخ بمثلها، ثم أرسل صخرة، فأقبلت تهوي حتى إذا كانت بأسفل الجبل تفلقت، فلم يبق بيت من بيوت مكة إلا دخلته. كانت هذه الرؤيا قبل قدوم ضمضم الغفاري، يستجد قريشاً لأبي سفيان بثلاثة أيام.

(٢) أمية بن أبي الصلت الثقفي شاعر جاهلي كان كثير الترحال والسفر، اعتنق الحنيفية، وكان يحدث العرب أن نبياً سيبعث فيهم قد شارف زمانه، وكان يرجو أن يكون هو ذلك النبي، فلما جاء الإسلام كفر بمحمد صلى الله عليه وسلم حسداً، ومات بعد غزوة بدر.

بات أبو لهب ومعه مكة كلها بشر ليلة، مال إلى تكذيب الخبر
بادي الرأي، فهذا ما لا يصدقه عاقل! أَيْقَتَلْ أَبُو الْحَكَمِ بْنِ هِشَامِ
أَعَزَّ قَرِيْشٍ، وَيُحْزِرُ رَأْسَهُ بِيَدِ ابْنِ أُمِّ عَبْدِ؟ أَمْ يُقْتَلُ أُمِيَّةُ بْنُ خَلْفِ
سَيِّدِ مَكَّةِ بِيَدِ بِلَالِ ابْنِ رِبَاحِ الْحَبَشِيِّ الْمُسْتَضْعَفِ؟ هِيَ هَاتِ! إِنَّهَا
تَخْرُصَاتُ شَاعِرٍ يَبْحَثُ عَنْ مَنَاسِبَةٍ لِقَصِيدَتِهِ.

ثم هذا أمية بن أبي الصلت أليس هو صاحب الخرافات
ومدعي الكرامات ومعرفة السنة الحيوانات؟ ألم يكن يزعم أنه
سيعبث نبياً! لا بد أنها نفثة من نفثات شيطانه الكاذب.

تتابعت الأخبار تترى، وارتفعت أصوات النوائح في مكة، ولما
يبزغ الفجر بعد. خرج أبو لهب ومكة في أمر مريج، وجعل لا يمر
ببيت إلا سمع منه رنة وعويلاً.

أهذه رؤيا عاتكة التي كان يسخر منها؟ صخرة أقبلت تهوي
من أبي قبيس، ثم تفلقت فلم يبق دار من دور مكة، إلا وقد دخلته.
استند على جدار حجرة العباس بجوار زمزم يتفرس في وجوه
الناس حتى رأى ابن أخيه أبا سفيان بن الحارث، وقد أخذ منه
الذعر كل مأخذ، فصاح به: هلمَّ إليَّ، فعندك لعمرى الخبر.

اقترب منه أبو سفيان حتى جلس إليه، فأحاط بهما الناس،
فقال له أبو لهب: يا ابن أخي أخبرني كيف أمر الناس؟ أبتلع أبو

سفيان ريقه واستعاد شيئاً من هدوئه، ثم قال: واللّٰه ما هو إلا أن التقينا حتى منحناهم أكتافنا، يقتلون منا كيف شاؤوا، ويأسروننا كيف شاؤوا، وإيم اللّٰه مع ذلك ما لمت الناس، لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض، لا يقوم لها شيء.

اسود وجه أبي لهب، واظلمت الأرض في وجهه، وسكت الناس وكأنما قد انعقدت ألسنتهم. وفي هذه اللحظة قفز أبو رافع مولى العباس بن عبد المطلب من طرف الحجرة وصاح: اللّٰه أكبر! تلك واللّٰه الملائكة! فهجم أبو لهب عليه هجمة شرسة وصفعه، ثم برك عليه، وقام يضربه ضرباً منكراً، كأنما ينتقم به من عذاب جسده وروحه.

لم تتمالك أم الفضل - زوجة العباس بن عبد المطلب - نفسها، وهي ترى هذا المولى المسكين يصارع الموت بين يدي أبي لهب، فقامت إلى عمود من عمد البيت فشجت رأسه شجة منكراً، واستنقذت مولاهما من بين يديه، وهي تصيح به: أستضعفته أن غاب عنه سيده؟ انسل الناس وتركوا أبا لهب، وقد خارت قواه ووهن عظمه، فاحتمله بنوه إلى بيته، فلما وصلوا البيت بان لهم جلية الأمر!

قرحة منتنة غائرة قد رعت جسد أبيهم. يال لهول! إنها «العدسة» تلك القرحة المشؤومة، التي تشمئز منها نفوس العرب، وتتشاءم بها.

انسئل الأبناء واحداً تلو الآخر، حتى العبيد ما لبثوا أن فهموا الأمر، فخرجوا عنه جميعاً.

أبولهب وقد أوصد عليه الباب وسدت النوافذ، فهو رهين محاسبه الثلاث: وحدته الكئيبة، ومرضه العضال، ونفسه المنكسرة.

لقد انتهى كفاحه المريع بهزيمة نكراء أمام الملاء على يد امرأة. لقد تركته قريش كلها لوحدته القاتلة، فلم يسأل عنه أحد. تغلى عنه بنوه ومواليه، فلم يطرق بابه أحد.

جيرانه.. أين جيرانه؟ لماذا لم يعده منهم أحد؟ ولكن! هل يحق له أن يسأل عنهم، وقد وضع الشوك على باب خيرهم جواراً وأقربهم رحماً.

أخذ أبولهب على تلك الحال المزرية سبعة أيام بليالهن يموت شيئاً فشيئاً. مات مشروعه الذي نافح عنه طوال حياته، ثم ماتت كرامته، وتبعها جسده عضواً عضواً، حتى أنتن وهو حي.

ولو أنها نفس تموت جميعة ولكنها نفس تساقط أنفسا^(١)

مات أبولهب وحيداً في بيته، غريباً بين ظهراني قومه، ولم يغن عنه ماله وما كسب. وأدهى من ذلك وأمر أن بقيت جثته ثلاثة أيام لم يقترب منها أحد.

(١) البيت لامرئ القيس بن حجر، انظر: الشعر والشعراء (١/ ١٢٠).

وكما ملأ مكة حقداً وبغضاً وهو حي، ملأت جيفته المكان
رائحة ونتاجاً وهو ميت.

لم يحمل على الأكتاف حمل الأربة، ولم يدفن في جوف
الأرض دفن الكرام، وإنما جعلوا ينخزون به بالعصي حتى أسندوه
إلى حائط، ثم رجموه بالحجارة حتى توارت جيفته عن الأنظار،
ومن يهن الله فما له من مكرم، وما ربك بظلام للعبيد.



ب : تحقيق سبب الوفاة

يغلب على الظن أن القرحة التي أصابت أبا لهب هي نوع من سرطان الجلد الليمفاوي، يدعى الورم الحبيبي الفطري (Mycosis Fungoids)، وهي التي كانت تسميها العرب العدسة. وفي لسان العرب: العدسة: بثرة قاتلة، تخرج كالتاعون، وقلما يسلم منها صاحبها، وفي حديث أبي رافع: أن أبا لهب رماه الله بالعدسة، هي بثرة تشبه العدسة، تخرج في مواضع من الجسد من جنس الطاعون، تقتل صاحبها غالباً^(١).

والورم الحبيبي الفطري هو أكثر الأورام الجلدية الليمفاوية شيوعاً، ويظهر على أشكال متنوعة، تصيب الجلد في منطقة الجذع غالباً. يبدأ هذا المرض على شكل آفات جلدية مسطحة، ذات لون زهري داكن. ولهذا السبب سمته العرب بالعدسة، تشبيهاً له بحبة العدس.

وما يلبث أن يتحول إلى كتل وأورام، تتقرح باستمرار، حيث تكون عرضة للعدوى الانتهازية بسبب البكتيريا أو الفطريات. وفي مراحلها المتأخرة يتحول إلى مرض عام يؤدي إلى احمرار في الجلد، وينتشر في الغدد الليمفاوية والدم، حيث يموت المريض بعدها بوقت قصير في حال عدم العلاج.

(١) لسان العرب (٦/ ١٣٢)، مادة عدس.

وهذا المرض من الأمراض التي اكتسبت سمعة سيئة لاعتقاد الناس أنه معد، ونظرًا لشكل التقرحات التي كانت تبعث الاشمئزاز في نفوسهم، خصوصًا إذا اقترنت بعدوى انتهازية تغير من رائجتها. ولهذا السبب يميل أغلب المرضى إلى إخفاء المرض عن الناس، حتى يستفحل الداء في مراحلهِ الأخيرة.

ويبدو من سياق القصة: أن أبا لهب كان يعاني من المرض قبل غزوة بدر، ولذا لم يخرج في النفير برغم الدواعي الملحة لخروجه، فهو أشد قريش عداوة وحقداً على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم هو من كبار تجار مكة، وقد قطع المسلمون طريق التجارة إلى الشام منذ سنة، وها هم يعترضون طريق القافلة الوحيدة، التي رجعت من الشام بربح وفير. ومما يؤكد ذلك أن الدين الذي أسقطه أبو لهب كان أربعة آلاف درهم، وهو مبلغ كبير لا يسقطه تاجر مثل أبي لهب، إلا إذا كان الظرف حرجًا. أضيف إلى ذلك أن المدين كان من عليّة القوم، فهو أخو أبي جهل بن هشام سيد مكة وزعيمها المطاع، ومن ثم فخروجه في الجيش أمر بدهي، ومسألة محسومة، وإنما أراد أبو لهب بهذه التمثيلية صرف النظر عن سبب قعوده الحقيقي. أما سبب موته المباشر بعد بدر فهو استفحال الداء، مع ما تعرض له من إهمال متعمد من أبنائه، ومواليه خشية العدوى، إضافة إلى ما كان يعانيه من ألم نفسي بئيس.



ج: إصابات طبية⁽¹⁾

الورم الحبيبي الفطري هو سرطان ليمفاوي، يصيب الخلايا الليمفاوية التائية (T-Lymphocytes)، التي تستقر تحت الجلد. وهو أكثر سرطانات الجلد الليمفاوية شيوعاً، إذ يمثل ما نسبته ٥٠٪ من هذه الأمراض. وليس ثمت علاقة علمية مثبتة بين هذا المرض والإصابة بالفطريات، وهو لا يعدي، كما كان الناس يعتقدون قديماً.

تشخيص المرض:

يبدأ المرض على شكل آفات جلدية سطحية ذات لون زهري داكن، وتكون بيضاوية الشكل أو مدورة. تتحول هذه الآفات إلى كتل مرتفعة قليلاً عن الجلد، وقد تؤدي إلى حدوث التجاعيد، وفي نهاية المطاف تتحول إلى قرح غائرة وأورام في العقد الليمفاوية.

يتم التأكد من التشخيص عن طريق أخذ خزعة من الجلد، حيث ترى الخلايا الليمفاوية التائية، وقد غزت طبقات الجلد، وانتشرت بين خلاياه.

(1) WHO Classification of Tumours of Haematopoietic and Lymphoid Tissue

علاج المرض :

تختلف نوعية العلاج حسب مرحلة المرض، ففي المرحلة الجلدية يكفي العلاج الموضعي بالإشعاع أو بالأشعة فوق البنفسجية: أما في المراحل المتقدمة فلا بد من العلاج الكيماوي المكثف.

الاحتياطات اللازمة :

قد تتشابه أعراض هذا المرض في مراحله الأولية مع الصدفية أو مع بعض أنواع الإكزيما، ولذا يجب الاحتياط عند تشخيص أي مريض لديه إكزيما غير نموذجية، أو حكة مستمرة غير مستجيبة للستيرويدات الموضعية.



د: ما سبب السرطان؟

يشكل هذا التساؤل أمراً ملحاً عند عامة الناس، وعند المتخصصين على حد سواء. فغالباً ما يبحث الناس عن سبب وحيد يُمكنهم من إلقاء اللائمة عليه: كأكل معين، أو تصرف محدد، بينما يلح المتخصصون على البحث عن الآلية التي تتحول من خلالها خلايا جسم الإنسان من خلايا سليمة، تساهم في بناء جسم الإنسان، وتعويض ما نقص من أنسجته إلى خلايا تنمو بشكل ذاتي، خارج عن سيطرة الآليات الفسيولوجية للجسم.

والحق أن السرطان لا يتسبب فيه عامل واحد فقط، بل هو من الأمراض التي يطلق عليها عديدة الأسباب (Multi-Factorial) بحيث تتضافر هذه الأسباب جميعاً بنسب متفاوتة، وتؤدي إلى حدوث طفرة جينية في الخلايا الأولية المسؤولة عن إنتاج الخلايا الوظيفية.

وهذه الأسباب تنقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية:

قسم لا يمكن التحكم به: كالأستعداد الوراثي مثلاً، وهو عامل مهم في نشوء بعض السرطانات، وإن كان لا يكفي وحده، بل لا بد من تضافر عوامل أخرى معه. يتمثل بالأستعداد الوراثي في وراثة

بعض الجينات التي تزيد من نسبة السرطان، أو وجود خلل في بعض الجينات التي تحمي من السرطان.

ومن أهم تلك الجينات على الإطلاق هو البروتين ب-53 (P-53)، الذي يلعب دوراً حاسماً في كبح نمو الأورام، ومن ثم الوقاية من السرطان. ويمكن معرفة وجود الاستعداد الوراثي للإصابة بالسرطان عن طريق ملاحظة إصابة عدد من الأقارب بنوع محدد من السرطان: كسرطان الثدي مثلاً أو بعض أنواع الليمفوما، أو عن طريق إجراء بعض الفحوصات الدقيقة، التي تختبر أداء بعض تلك الجينات. وهنا تكمن أهمية الكشف المبكر والمتابعة الدورية خصوصاً في الأفراد الذين لديهم أقارب من الدرجة الأولى قد أصيبوا بمثل هذه الأنواع من السرطانات.

أما القسم الآخر من المسببات فهو ما يمكن التحكم به، ومن ثم اجتنابه والابتعاد عنه. وتعدُّ العوامل البيئية المسببة للطفرات الجينية من أهم هذه الأسباب. ويأتي في مقدمتها التعرض للإشعاع، سواء أكان من مخلفات الحرب أو كان ناتجاً من الاستخدام السلمي للمواد المشعة.

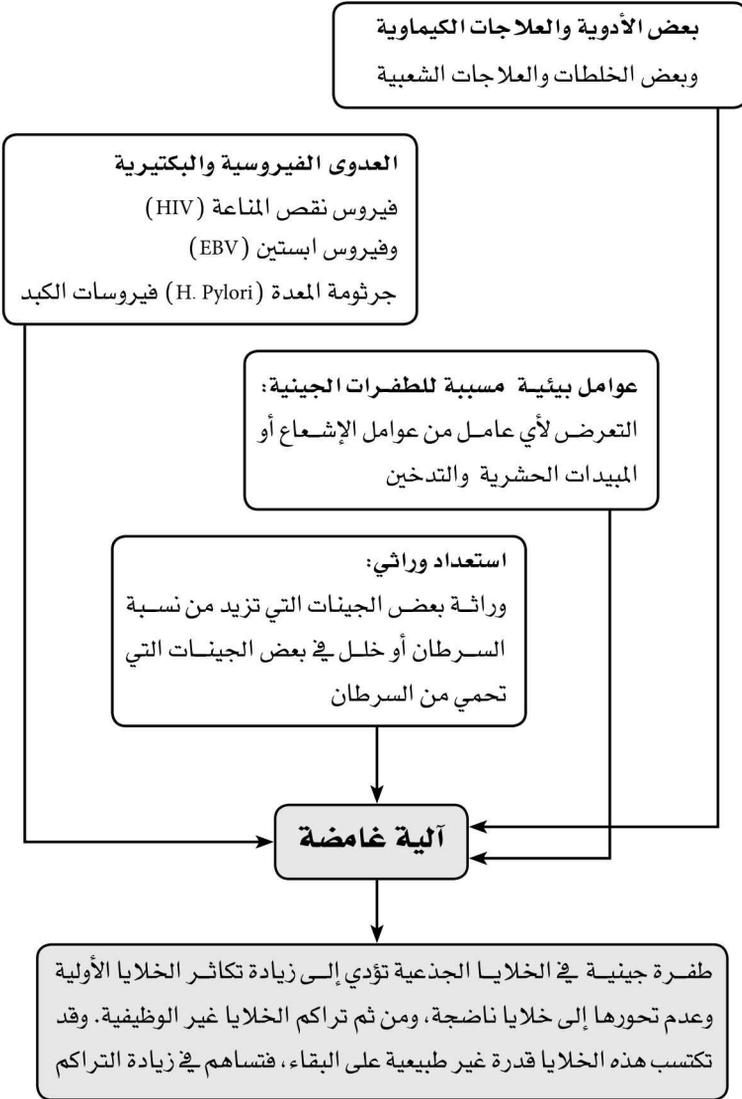
ويدخل تحت هذه الأسباب بعض التصرفات الفردية: كالتدخين مثلاً، فهو أحد العوامل المؤكدة لحدوث سرطانات الرئة

والمثانة، خصوصاً عند اقترانه مع استعداد وراثي. وبالإضافة إلى ذلك قد يؤدي استخدام بعض الأدوية إلى زيادة خطر الإصابة بالسرطان على المدى البعيد والمتوسط.

ومما يجدر بالذكر هنا، أن بعض الخلطات الشعبية قد تحتوي على نسب عالية من المعادن الثقيلة كالرصاص، مما يزيد خطر الإصابة بالسرطان أيضاً. وثمت قسم ثالث من مسببات السرطان، يمكن علاجه بعد وقوعه: كبعض أنواع العدوى الفيروسية والبكتيرية.

وهذه الحقيقة، حقيقة أن نشوء السرطان يحتاج إلى عدة عوامل تتضافر معاً، تجيب على اعتراض طالما أثاره كثير من عامة الناس عند الحديث عن أضرار التدخين. وسبب هذا الاعتراض أنهم يرون كثيراً من المدخنين يعمرون طويلاً، ولا يصيبهم السرطان. والإجابة على هذا الاعتراض مفادها أن من يقوم بالتدخين يكون قد أضاف عاملاً مؤكداً للإصابة بالسرطان، ولكن الإصابة بعد ذاتها تحتاج إلى عوامل مساعدة أخرى.

والخطر المحقق يكمن في أن بعض هذه العوامل لا يمكن التنبؤ بوجوده أصلاً، فيظل كامناً ينتظر تكامل العوامل الأخرى. ولك أن تتخيل كيف ترتفع نسبة الإصابة عند مدخن لديه عامل جيني مسبب للسرطان!



شرح مبسط عن آلية حدوث السرطان: (هذه الآلية تشكل قاعدة عامة، قد يشذ عنها بعض الأنواع)

الفصل السابع

المخبل السعدي

يرى الشخص كالشخصين وهو قريب

أ: قصة المخبل السعدي^(١)

اشتدت قبضته على العصا وأمسكها بأنامله العشر، وهو ينوء للنهوض، لكي يخرج من بيته إلى منهل الماء، فقد سئم الوحدة، وكاد أن يقتله الضجر.

ومع أن بواعث الخروج قوية ودواعيه ملحة، إلا أنه تردد كثيراً قبل أن يهجم بالمحاولة، فمئة عام ونيف قد أثقلت كاهله، وأرخت مفاصله، ونالت من همته وعزمه. وضع رأسه على ظهر يديه، واستند على العصا، ثم نهض منحنيًا كقوس بالية، اشتد وترها فعطف سيتها^(٢).
خرج ربيع السعدي من بيته يدب دبيباً، وهو يهيمهم بأبيات صنوه الآخر لبيد بن ربيعة، الذي قاسمه الشعر، وشاكله في طول العمر:

فماذا ورائي إن تراخت منيتي

لزوم العصا تحنى عليها الأصابع

أخبر أخبار القرون التي مضت

أدب كأنني كلما قمت راع

(١) للاستزادة: انظر: عشرة شعراء مقلون (٥٠-٧٨)، والشعر والشعراء (١/ ٤٢٠)، والأغاني (١٢/ ٢٨-٤٢).

(٢) سية القوس: هي طرفها المعوج، وللقوس سيطان، وإذا اشتد الوتر عطف السيتين، فأصبحت القوس منحنية.

تحامل على نفسه حتى بلغ بطن الوادي ثم استند إلى أصل شجرة هناك وأخذ يقلب طرفه يمنة ويسرة في أرجاء وادي الكلاب الأفيح^(١). رفع رأسه قليلاً لينظر إلى جبل ثهلان، وقد سد الأفق وهو يستعد لابتلاع قرص الشمس التي شارفت على المغيب.

ذرفت عيناه، وكأنما ذكره غياب الشمس واستتارها خلف ذروة من ذرى ثهلان بغياب من نوع آخر. إنه غياب ابنه الوحيد شيبان الذي رزق به بعد أن جاوز السبعين، ثم ها هو ينتدب في جيش سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لفتح العراق.

لقد أكل هذا الغياب كبده، وأبقى له عبرة لا ترقأ، وغصة لا تقلع، حتى لقد تلفت نفسه في إثر كل قافلة، تتوب من العراق أو تخرج إليه. وفي كل مرة يخيب أمله، فيرجع حسيراً إلى بيته، ويقسم على نفسه أن تقطع رجاءها، وأن تصرم جبل أملها، لكي تستريح من إشفاقها وتطلعها.

ولكنه ما أن يسمع رغاء الإبل، وقد حطت رحالها على منهل الشعراء^(٢) حتى يتسلل الأمل إلى نفسه من جديد، كما يتخلل مطر

(١) وادي الكلاب: واد يسلك شرقي ثهلان، يسمى حالياً وادي الشعراء، وقع فيه يومان من أيام العرب في الجاهلية.

(٢) بئر ماء قديم يقع شرقي ثهلان، قامت حوله قرية الشعراء، وهي مركز يتبع محافظة الدوادمي بمنطقة الرياض حالياً.

الصيف عروق شجرة لم تمطر في شتاء أورييع، فيبادر إلى المنهل،
وقد بعث الأمل عظامه، وسرى في مفاصله.

ولكن ما يبعث على الأسى أنه كثيراً ما يُعْتَقَل مكانه، حاملاً
يخيب رجاؤه فيعجز عن الرجوع إلى بيته، وربما عثر في طريقه
فوقع في قلب شجرة.

لم يشأ أن يسترسل في هذا الخيال الحزين، فواصل المسير في
بطن وادي الكلاب، حتى وقف عند طلحة خضراء قد حفر السيل
عن عروقها المتشعبة. لقد وقف بإرادته هذه المرة، وكأنما يريد أن
يستحث ذاكرته القديمة على تذكر يوم من أيام البطولة والشرف،
جرت أحداثه في جنبات وادي الكلاب^(١)، حيث تقف قدماه.

لا يزال يذكر كيف عم الروع أرجاء الوادي عندما سمع قومه
أن ملك نجران الحارث بن عبد يغوث قد أقبل عليهم بجيش عظيم،
يريد أن يستأصل شأفتهم، ويبيد خضراءهم. لم يلبثوا كثيراً حتى
سالت عليهم جنبات الوادي بالخييل والرجال، واختلط وقع سنابك
الخييل مع قعقة السلاح. انبرى لهم أبطال قومه على قلتهم، وكثرة
الجراح فيهم، ولسان حالهم:

(١) يوم الكلاب الثاني: يوم من أعظم أيام العرب وقع بين الحارث بن كعب وأحلافها
وبين قبيلة تميم، وحدث بعدما طمعت القبائل في تميم بعد أن أوقع بهم كسرى في يوم
الصفقة، فجمع لهم بنو الحارث بن كعب ثمانية آلاف مقاتل، وساروا إليهم من نواحي
نجران، فهزم جمعهم شر هزيمة، وأسر قائدهم الحارث بن عبد يغوث، ثم قتل بدم
النعمان بن مالك سيد الرباب. انظر: أيام العرب في الجاهلية (ص ١٠٠).

ولو كان جمعاً مثلنا لم نبالهم ولكن أتتنا أسرة ذات مضخر^(١)

لقد تداخلت عليه أصوات المعركة، فلم يعد يميز بينها إلا صوت قيس بن عاصم^(٢) سيد بني سعد وهو ينادي: يا لتميم، يا لسعد! حتى انجلت المعركة عن ملحمة من ملاحم العرب الكبرى، وانتصرت البطولة المدافعة عن نفسها على الكثرة الغازية.

أحس بنشوة النصر، وهو يتذكر مشهد الملك الأسير، يطاف به بين بيوتات بني سعد والرباب، ليحكم فيه ذوو النهى. كان المشهد في غاية الغرابة، ليس لأن الأسير ملك، وإنما لأنه شاعر! خاف القوم من هجائه، فربطوا لسانه، وأجموا فمه.

يا لمفارقة القدر! أيهان لأنه ملك، ويخاف منه لأنه شاعر؟ ولكن! أليس هذا هو شأن الدنيا منذ بدأ الخلق؟ ما أن تتقلب ظهراً على عقب، حتى تسلب المرء جميع ما تلبس به من صفات خارجة عنه من جاه أو مال أو ملك، ولا يبقى له سوى صفاته اللازمة في نفسه من علم أو شعر أو حكمة، لتكون مصدر قوته الوحيد في زمن محنته.

(١) البيت لعامر بن الطفيل من قصيدة له، قالها يوم فيف الريح. الشعر والشعراء (١/ ٢٢٥).

(٢) قيس بن عاصم المنقري: سيد تميم في الجاهلية والإسلام، اشتهر بالشجاعة والحلم، وكان قائد تميم يوم الكلاب الثاني، وفد على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سنة تسع، وقال فيه: هذا سيد أهل الوبر. مات في خلافة عمر، فرثاه عبدة الطبيب:

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترحمها
وما كان قيس هلكتك هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

لم يستطع ربيع إخفاء تعاطفه مع الأسير الشاعر، عندما أشار إلى القوم بأن يطلقوا لسانه لكي ينوح على نفسه قبل أن يقتل، وربما أدركه رحم الأدب، الذي يجمع بينه وبين الأسير، فكلاهما شاعر مُجيد:

وقرابة الآداب تقصر دونها
عند الأديب قرابة الأنساب

أطلق القوم لسانه وأقبلوا يلومونه على عدوانه عليهم، فأنشد قصيدته الخالدة:

أَلَا لَا تَلُومَانِي كَفَى اللُّومَ مَا بِيَا
فَمَا لَكُمْ فِي اللُّومِ خَيْرٌ وَلَا لِيَا
أَلَمْ تَعْلَمَا أَنَّ الْمَلَامَةَ نَفَعُهَا
قَلِيلٌ، وَمَا لَوَمِي أَخِي مِنْ شِمَالِيَا
فِيَا رَاكِبَا إِمَّا عَرَضْتَ فَبَلَّغُنْ
نَدَامَايَ مِنْ نَجْرَانَ أَنْ لَا تَلَاقِيَا
أَحَقًّا عِبَادَ اللَّهِ أَنْ لَسْتُ سَامِعَا
نَشِيدَ الرُّعَاءِ الْمُعْزِبِينَ الْمَتَالِيَا

أَقُولُ وَقَدْ شَدُّوا لِسَانِي بِنِسْعَةٍ^(١)
 أَمَعَشَرَ تَيْمٍ أَطْلِقُوا عَنِ لِسَانِيَا
 أَمَعَشَرَ تَيْمٍ قَدْ مَلَكَتُهُمْ فَأَسْجَحُوا
 فَإِنَّ أَخَاكُمْ لَمْ يَكُنْ مِنْ بَوَائِيَا^(٢)
 فَإِنَّ تَقْتُلُونِي تَقْتُلُوا بِي سَيِّدَا
 وَإِنْ تُطْلِقُونِي تَحْرُبُونِي بِمَالِيَا
 كَأَنِّي لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا وَلَمْ أَقْلُ
 لِحَيْلِي كُرِّي نَفْسِي عَنِ رَجَالِيَا

فلما فرغ منها قطعوا له عرق الأكل، وتركوه ينزف حتى مات.

مرت هذه الأحداث تترى على خيال ربيع السعدي، وقد طال به الوقوف في المكان حتى خشي أن يدركه الليل، ولما يصل إلى منهل الماء بعد. أسرع في مشيه قليلاً، وقد فاءت إليه نفسه، واستعاد شيئاً من ثقته، فلا يزال شاعر بني سعد في الجاهلية والإسلام.

جاوز بطن الوادي، ومضى يحث خطاه نحو الماء، فزلت قدمه وهوى إلى الأرض. كان الموقف محرّجاً ومؤملاً في الوقت ذاته، ولكنه

(١) النسعة: سير عريض، يصنع من الجلد يشد به.

(٢) أسجحوا: لينوا ويسروا، البواء: النظرير والمكافئ.

لم يعبأ بالألم بقدر خوفه من ضياع عصاه، التي لا غنى له عنها في جميع أحواله.

استوى جالساً ومد يديه يمنة ويسرة رجاء أن يظفر بها، فيكفي نفسه مؤونة سؤال المازة. مرت الثواني وكأنها ساعات وهو يتحسس ما حوله دون جدوى، فاستند على يديه، واحتمل على ركبتيه، وأخذ يحبو ورأسه يكاد يمس الأرض ضعفاً وخجلاً.

أبا شيبان! صوت رقيق ويد أرق نهضت به في حنان وعطف. أمسكت بيده وأصلحت من شأنه، ثم أخذته إلى بيتها القريب وأكرمت ضيافته وهو مطرق ساكت. فلما أراد النهوض سألتها: من تكونين؟ فقالت: أنا بعض من ذكرت في شعرك. فقال: ويحك ومن أنت؟ فقالت: خليدة بنت بدر.

خليدة؟ يا لهول المفاجأة! ويا لعجائب الصدف! خليدة! مثال الحب والغزل، ورمز البغض والهجاء في شخص واحد. إنها الحلم الجميل الذي أشعل في روحه جذوة العشق في خريف العمر، ثم ما لبث أن تحول إلى خيبة مريرة، لا تزال تذكره بأن شبابه قد ولى إلى غير رجعة.

لقد لقيها قبل ثلاثين سنة، فرمت قلبه بدل ناعم ووجه مليح، فهام بها أيما هيام. خطبها فردت خطبته، وسخرت من تصايبه وتجاهله لسنه.

لم يتحمل رد خطبته فضلاً عن السخرية منه، فهجاها هجاءً مقذعاً، ونال من أخيها الزبرقان بن بدر^(١). ولم يقف عند هذا الحد، بل تعرض لعرضها، ولج في الشتم والهجاء حتى ظن الناس أن في عقله خبلاً، فلقبوه «بالمخيل»، فأصبح علماً عليه.

أطرق خجلاً، وهو يتذكر صنيعها الجميل معه قبل لحظات على الرغم من هجائه المقذع لها طوال ثلاثين سنة. نهض من بيتها وهو يعتذر، ويقول:

لقد ضل حلمي في خليفة ضلة سأعتب ربي بعدها وأتوب
وأشهد والمستغفر الله أنني كذبت عليها والهجاء كذوب

وصل البئر وقد كثر وراؤه، وتزاحم عليه الرعاء، وتبادره رواد القوافل من كل حذب وصوب. تبين له من لغاتهم المختلفة أنهم أضماميم من قبائل شتى، قد جمعهم منهل ماء واحد.

يا لروعة الإسلام وما أعظم أثره على الناس، كيف ألف بين القلوب المتنافرة، ونظم القبائل المتناحرة في نظام واحد. لم يدُر بخُد عربي قط قبل عشر سنين أن يجتمع التميمي مع البكري أو الحارثي مع العامري على مورد واحد دون أن تتشب الحرب

(١) الزبرقان بن بدر السعدي كان سيدياً في الجاهلية، عظيم القدر في الإسلام. وقد على رسول الله ﷺ في وفد بني تميم، فأسلم وحسن إسلامه. كان يلقب بقمر نجد لجماله، وله قصة مشهورة مع الحطيئة.

العضال، واليوم تزدهم على الشّعراء عدة قبائل، بل تنتظم العرب كلها في جيش واحد يقاتل الفرس والروم.

في هذا المشهد المفعم بالحركة لمح المخبل فتىً يمتاح الماء، وقد انحسر الرداء عن منكبيه، وهو يرفع الغرب كأنما هي دلو صغيرة، ويفرغها في حوض إبله العطاش^(١). راق له المنظر كثيراً، وكأنما ذكره بابنه شيبان، فأملهه حتى سقى إبله ثم ناداه. أقبل الفتى يتهلل وجهه، وقبل رأس الشيخ. فقال له المخبل: من أي العرب أنت؟ أجاب الفتى بشئ من الزهو: من بني هلال بن عامر، وأنتم أخوالي يا بني سعد. فقال له المخبل: ما صنع صاحبكم حميد بن ثور الهلالي^(٢)؟ رد الفتى: عهدي به يرعى إبله بين ضرية والنير^(٣). ضرب المخبل الأرض بعصاه، ثم قال: أنا والله أولى منه بأبياته التي سبق الشعراء إليها:

أرى بصري قد رابني بعد صحة

وحسبك داء أن تصح وتسقما

ولن يلبث العصران: يوم ويلة

إذا اختلفا أن يدركا ماتيمما

(١) يمتاح: يفترف الماء من البئر، الغرب: الدلو العظيمة.

(٢) شاعر مخضرم وفد على النبي ﷺ بعد حنين وأسلم، عده الأصمعي من فصحاء الشعراء، وهو مقدم في شعر الوصف والغزل والحكمة. تولى في خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه.

(٣) النير: جبل شهير يتوسط عالية نجد يقع إلى الجنوب من ضرية به العديد من آبار المياه.

استرسل الشيخ: لقد أنكرت بصري بعد أن كان أقوى ما ترك
الزمن لي، وما أرى هذا إلا بريدِ حمامي، ولم يبق لي من أمنيات
الحياة سوى أن أرى ولدي شيبان قبل أن أموت ، فهل تحفظ الشعر
يابني؟ رد الفتى بحماس ولهفة: أنا والله خير من يحفظه وخير
من ينشده، وحسبك بي إذا قمت في نادي القوم، ورفعت عقيرتي
بالشعر، وغنيت غناء يصبي الشيخ، ويبكي العجوز على صباها.

التفت المخبل إلى الأفق البعيد، ثم قال: فاحفظ عني إذا:

أُيْهِلِكُنِي شَيْبَانُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ
لِقَلْبِي مِنْ خَوْفِ الْفِرَاقِ وَجَيْبُ
وَيُخْبِرُنِي شَيْبَانُ أَنْ لَمْ يَعْقِنِي
تَعَقُّ إِذَا فَارَقْتَنِي وَتَحُوبُ
فَإِنْ يَكُ غُصْنِي أَصْبَحَ الْيَوْمَ ذَاوِيَا
وَوُغْصَنُكَ مِنْ مَاءِ الشَّبَابِ رَطِيبُ
فَإِنِّي حَنْتَ ظَهْرِي خُطُوبُ تَتَابَعَتْ
فَمَشِي ضَعِيفُ فِي الرِّجَالِ دَبِيبُ
وَمَا لِلْعِظَامِ الرَّاجِفَاتِ مِنَ الْبَلِي
دَوَاءٌ وَمَا لِلرُّكْبَتَيْنِ طَبِيبُ

إِذَا قَالَ صَحْبِي يَا رَبِيعُ أَلَا تَرَى
أَرَى الشَّخْصَ كَالشَّخْصَيْنِ وَهُوَ قَرِيبٌ

وَإِنَّ امْرَأً قَدْ عَاشَ تَسْعِينَ حِجَةً
إِلَى مَنْهَلٍ مِنْ وَرْدِهِ لِقَرِيبٌ

إِذَا ذَهَبَ الْقَرْنُ الَّذِي أَنْتَ فِيهِمْ
وَحَلَّضْتَ فِي قَرْنٍ فَأَنْتَ غَرِيبٌ

انطلق الفتى يغنيها بلحن حزين على وقع خطى الشيخ المتتابعة، الذي مضى عجلًا يحاذر أن يحول الليل بينه وبين منزله. سرى الصوت في نوادي العرب قبل أن يصل المخبل إلى بيته، وكأنما تكلمت بإيصاله سحابة الغروب الحمراء، التي كانت أول من سمع الصوت.

بلغ هذا الصوت مسامع عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في المدينة فبكى حتى بل رداءه، وأنفذ رسوله على الفور إلى سعد بن أبي وقاص يأمره برد شيبان إلى أبيه، ويعزم عليه ألا يفارق أباه أبدًا.

يا لها من رسالة مفادها أن الإسلام دين بر ورحمة، وإلا فمن يعبأ بشيخ هرم هو هامة اليوم أو غدٍ في وقت تشتد الحاجة فيه إلى كل ساعد ومعصم في خضم فتوحات الشام والعراق.

تذكر الناس المخبل، وتتابعوا على زيارته، وكلهم يبشره برسالة عمر فينصت إليها كل مرة، وكأنه أول مرة يسمعها. أقام أياماً لا يذوق النوم إلا غِراً بعد أن حلت لهفة الشوق محل حرقة الأسى.

تهب الشمال فيستقبلها بوجهه، ويقول: ما أطيبها من ريح تهب من قبل شيبان، وتستحث ركابه وتأتيني برياًه. وسرعان ما صدقت الشمال وعدّها فأتت بشيبان يحدوه الشوق حتى أوصلته مشارف الحي. تسابق الفتيان إلى المخبل يبشرونه بوصول ولده، وما علموا أن روحه قد صحبت شيبان منذ أن فصلت العير من العذيب^(١). ولم يتموا بشارتهم حتى استداروا ثم انطلقوا يتبادرون شيبان. كم تمنى المخبل لو يقدر على مجارتهم فلا يسبقه أحد إلى ولده، ولكن:

النفس تأمل والأسباب عاجزة

والنفس تهلك بين اليأس والطمع

أقبل شيبان تخب به مطيته، حتى وقفت به أمام بيت والده الذي جلس متحفزاً بساحة البيت، وقد أمسك عصاه بكلتا يديه. حاول أن ينيخ ناقته فلم يستطع، وكأنما تصلبت ركبناها من طول السير، وأفناها التهجر والدؤوب^(٢). لم يستطع الانتظار فقفز منها

(١) العذيب: منزل من منازل طريق الحج الكوفي به عين عذبة وبركة ماء، وهو حد جزيرة

العرب من جهة العراق، ويقع في الصحراء على بعد أربعين، كيلا جنوب النجف.

(٢) التهجر: سير الهاجرة، وهي منتصف النهار عند اشتداد الحر، الدؤوب: الإلحاح في

السير والمداومة عليه.

ليحتضن أباه، الذي نهض ليقوم له فخانته قدماه أحوج ما كان
إليهما، فلم يستطع القيام وسقط على جنبه.

كان المنظر باعثاً على البكاء، فلم يتمالك أحد عينه، بكى
المخبل فرحاً وحبوراً، وبكى شيبان أسفاً وندماً، وبكى الناس رقة
وحزناً.



ب : تحقيق سبب المرض

يتضح من سياق القصة ومن استقراء ديوان المخبل أنه أصيب بمرض ازدواجية الرؤية (Diplopia) في آخر حياته رَحْمَةً اللهُ. وقد أثر هذا المرض على نفسيته كثيراً مع تقدم سنه وضعف حركته، وقد وصفه أكثر من مرة في شعره.

وازدواجية الرؤية أو (Diplopia) هو مرض بصري يؤدي إلى رؤية صورتين لشيء واحد في الوقت ذاته، وقد تكون صورتان فوق بعضهما أو جنباً إلى جنب. وهذا المرض مريب جداً في أثناء المشي والحركة، إذ يؤدي إلى اختلال التوازن، أما حال التركيز في الأشياء القريبة، فيسبب الصداع والغثيان، وربما سبب ألمًا في عضلات العين.

مع العلم أن الحالات الخفيفة من هذا المرض قد لا يصاحبها أي أعراض مرضية أخرى، وإنما تختلف الأعراض الصحية بحسب اختلاف سبب المرض، كما سنرى بعد قليل.

وقد وصف المخبل هذا المرض وصفاً دقيقاً، يبين مدى تأثره منه. تأمل قوله:

إذا قال صحبي ياربيع ألا ترى

أرى الشخص كالشخصين وهو قريب

فقد أنكر أصحابه ضعف بصره، وربما استدلوا على ذلك من مشيته المضطربة أو من طريقة نظره، إذ إن المصابين بهذا المرض قد يديرون رؤوسهم بطريقة غير عادية، أو ينظرون بشكل جانبي بدلاً من النظر إلى الأمام، وقد يضطرون لتغطية إحدى العينين لأجل استبعاد الصورة المكررة. رد المخبل على أصحابه بإجابة حاسمة تبين سبب معاناته، فشكواه ليست من ضعف البصر بقدر ما هي من ازدواج رؤيته للأشياء. ورغم قرب الأشياء والأشخاص وقدرته على رؤيتها وتحديد معالمها، إلا أنه لا يراها فرادى، بل كل شيء تتكرر صورته مرتين.

وقد ازداد عليه المرض في آخر حياته، فأصبح يرى الشخص ثلاثة أشخاص أو أكثر، فعاد أكثر تدمراً، وأشد مرارة حتى مع حضور ابنه. يقول في قصيدة أخرى، يبدو أنها من أواخر قصائده رَحْمَةُ اللَّهِ:

ومشيت باليد قبل رجلي خطوها

رَسَفَ المقيّد تحت صُلبِ أحَدٍ

فإذا رأيت الشخص قلت: ثلاثة

أو واحدٌ وأخاه لم يقرب

وقضى بني الأمر لم أشعر به وإذا شهدتُ أكون كالمغيبِ

ففي هذه الأبيات يصور نفسه، وهو عاجز عن المشي على قدميه، حتى أصبح يجبو على يديه، كما يمشي من أثقلت القيود رجليه، فهو يرسف في قيوده، وهي صورة معبرة جداً، برغم أنها مألوقة في الشعر العربي. أما بصره فقد تدهور كثيراً هذه المرة، فهو لا يكاد يتبين الشخص حتى لو كان قريباً منه.

و الشاهد هنا هو إلحاحه على ذكر سبب معاناته الدائمة من ازدواجية الرؤية، التي أضعفت قدرته على التصور والحكم على الأشياء، فأثرت على عقله حتى غدا كأنه حاضر غائب يقضى في أموره وهو لا يشعر، وسواء أشهد إبراهيم الأمر أم غاب عنه.

ولم تطل حياته بعد ذلك، فمات في أواخر خلافة عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.



ج: إضاءات طبية⁽¹⁾

ازدواجية الرؤية أو (Diplopia) هو مرض بصري نادر يشكل أقل من ٢٪ من أمراض العيون بشكل عام. يؤدي هذا المرض إلى رؤية صورتين لشيء واحد في الوقت ذاته، بدلاً من رؤية صورة واحدة محددة المعالم. وقد يكون المرض مستمراً طوال الوقت، وقد يحدث في أوقات معينة أو عند النظر باتجاه معين.

أسباب المرض :

ينتج المرض بسبب خلل في جهاز الرؤية (Vision System) الذي يتكون من أجزاء عديدة، تتناغم فيما بينها بشكل متناسق لرؤية صورة فردية واضحة ومحددة المعالم. وقد تحدث الرؤية المزدوجة في عين واحدة أو في العينين معاً، نتيجة لعدد من الأسباب المرضية، وأشهر الأسباب ما يلي:

١- تشوهات القرنية وعدم انتظامها، مما يؤدي إلى تشتيت الضوء الداخل إلى العين، وهذا الخلل يؤدي إلى الرؤية المزدوجة في عين واحدة، حيث يمكن تفاديه بتغطية العين المصابة. ومما يجدر ذكره هنا أن جفاف العين وقلة الدمع قد يؤدي إلى هذا الخلل أيضاً.

(1) <http://emedicine.medscape.com/article/1214490-overview>

٢- مشكلات عدسة العين: أبرز هذه المشكلات هو الإعتام أو الماء الأبيض (Cataracts)، إذ يؤدي إلى تشوه الصورة التي تدخل العين. وهذا السبب يمكن علاجه بسهولة عن طريق الجراحة.

٣- حدوث خلل في أداء عضلات العين: يعد الحول أحد أشهر هذه الأسباب، لأن كل عين تشير إلى زاوية معينة تبعد عن زاوية العين الأخرى، فيصعب على الدماغ دمج الصورتين معاً. ومن الأسباب الأخرى، ضعف العضلات الشديد بسبب شلل الأعصاب، أو بعض الأمراض المناعية كالوهن العضلي الشديد (Myasthenia Gravis).

٤- مشكلات أعصاب العين: قد تحدث الرؤية المزدوجة بسبب حصول ضرر في الأعصاب، التي تتحكم في حركة العين أو في العصب البصري (Optic nerve)، الذي ينقل الصورة من العين إلى الدماغ. وضرر الأعصاب قد ينتج بسبب الجلطات أو الأورام، وقد يتسبب فيه بعض الأمراض كالتصلب اللويحي. ويعد السكر من أهم الأسباب التي قد تسبب ضرر الأعصاب، ومن ثم ضعف عضلات العين والرؤية المزدوجة في العينين معاً.

٥- إصابات الرأس أو أورام الدماغ، التي تؤدي إلى تلف أنسجة مركز الرؤية، أو تضغط على محجر العين، وتقيد حركة عضلاتها.

العلاج:

نظراً لأن مرض الرؤية المزدوجة قد يكون مقدمة لأمراض عديدة أخرى، فإن العلاج ينبغي أن يتم في مراكز متخصصة تحت إشراف طاقم طبي متكامل. ويعد التشخيص السليم ومعرفة السبب الكامن وراء المشكلة هو أهم خطوة في عملية العلاج، وهذا الأمر يتطلب تعاوناً كاملاً بين المريض وطيبه، إذ إن دقة وصف الحالة والانتباه لها مبكراً عاملان حاسمان في مدى دقة التشخيص، ومن ثم العلاج.

الرؤية المزدوجة عند الأطفال:

كما يصاب الكبار بالرؤية المزدوجة يصاب الأطفال أيضاً، لكن المشكلة تكمن في أن الأطفال غير قادرين على تقديم شرح واضح لما يحصل، مما قد يؤخر التشخيص، حتى يتطور المرض، وتصل مضاعفاته إلى مراحل متقدمة.

وأهم تلك المضاعفات هي فقدان النظر في إحدى العينين بسبب تجاهل المخ للصور القادمة منها، والتي تختلف كلية عن صور العين الأخرى، مما يؤدي إلى كسل العين، وقد يسبب فقداناً دائماً للنظر في تلك العين في حال استمرار المشكلة. ولذا لا بد أن يحرص الأبوان على اكتشاف المشكلة مبكراً، وهنا بعض العلامات المفيدة بهذا الصدد:

١- الطفل المصاب بازدواجية الرؤية غالباً ما يلوي عنقه بشكل مائل في أثناء النظر، أو ينظر بشكل جانبي بدلاً من النظر إلى الأمام.

٢- عند ملاحظة أن الطفل يضيق عينه في أثناء الرؤية، أو يغطي إحدى عينيه في كثير من الأحيان، ينبغي التنبه ومراجعة الطبيب المختص.

٣- يعدّ الحول أهم أسباب الرؤية المزدوجة شيوفاً لدى الأطفال، ويجب علاجه مبكراً تفادياً لضعف النظر، الذي قد يحدث في إحدى العينين في حال تأخير العلاج.



د : سر القوة صفة كامنة

صفات الإنسان إما صفات لازمة له كامنة فيه ، وإما صفات خارجة عنه مباينة له . فالصفات اللازمة هي مجموع مهارات الإنسان وأخلاقه وملكاته الكامنة فيه الملازمة له ، التي لا تزول إلا بزوال الإنسان نفسه . وهي مصدر القوة الحقيقي ، الذي لا يقدر على استلابه عدو بخلاف الصفات الخارجة عن الإنسان من غنى أو جاه أو منصب ، التي غالباً ما تكون عبئاً على الإنسان عند تغير الأحوال وانقلاب الأمور .

تأمل في سير من قلبت لهم الدنيا ظهر المجنّ يستبين لك
القصد وتقف على جلية الأمر . تغيرت الدنيا على ابن حزم رَحِمَهُ اللهُ ،
فذهبت وزارته ، وهدمت داره ، وأحرقت كتبه وهو ينظر ، فقال بعزة
الوائق من نفسه المعتد بعلمه :

فإن يحرقوا القرطاس لا يحرقوا الذي

تضمنه القرطاس بل هو في صدري

يسير معي حيث استقلت ركائبي

وينزل إن انزل ويدفن في قبري

وتأمل في قول المعتمد بن عباد، وقد سيق أسيراً مغلوباً بعد عز
الملك وجاه السلطان:

ملكي وتسلمني الجموع	إن تستلب عني الدنا
لم تسلم القلب الضلوع	فالقلب بين ضلوعه
ع أيسلب الشرف الرفيع؟	لم أستلب شرف الطبّا
فليبد منك لهم خضوع	قالوا الخضوع سياسة
ع على فمي السم النقيع	وألذ من طعم الخضو
والأصل تتبعه الفروع	سير الألى أنا منهم

فلم يبق له من أسباب العزاء وأسرار الثبات سوى ما تضمنه
قلبه من شرف الطباع وكريم الخصال، وهي صفات لا تستطيع
الدنيا بأكملها أن تستلبها منه، كما يقول. وأصبح الشعر مصدر
سلوّه الوحيد في غربته الموحشة وسجنه الكئيب.

أجمع حكام أثينا على إعدام الحكيم سقراط بسبب فلسفته
التي كانت تقوم على أساس تغيير المفاهيم الخاطئة، وتصحيح
التصورات المغلوطة عن الحكم والعدل والحكمة. كان في أثناء
المحاكمة هادئاً لا يلتفت إلى أحد، وكأن المعنى بالمحاكمة أحد سواء.
لم يكن هدوؤه تصنعاً، بل كان استغراقاً في فلسفة الحياة والموت،
حتى لقد انشرح صدره حين توصل إلى أن ثمرة حياته قد نضجت،
وأن للموت أن يقطفها.

وليس هذا الأمر قصراً على حال النكبات، بل حتى عند تقدم السن وانصرام الأتراب أو حال العجز والمرض. ولك أن تتخيل البون الشاسع في حال فقدان البصر مثلاً بين صاحب المال الجاهل، وبين من أوتي علماً وحكمة.

والمقصود أن يدخر الإنسان لنفسه شيئاً يسليه ويشد قلبه، ويعينه على الصبر والثبات حال عجزه أو تغير الدنيا عليه. وقد يكون هذا الشيء مهارة يطورها، أو ملكة ينميها، أو علماً يحفظه، وربما كان طريقة من طرائق التفكير والتفلسف في الكون والحياة والوجود.



خاتمة

كما مر بك عزيزي القارئ، عرضنا في هذا الكتاب الموجز سبع قصص لسبع شخصيات من مآثورنا التاريخي والأدبي، وحاولنا جاهدين ربطها بالعلم الحديث في جوانب الطب والتربية، لعلنا بذلك أن نثري المكتبة العربية بنوعية جديدة من الكتب والبحوث، التي تفتح الأفق واسعاً لدراسات معمقة في حضارة العرب والمسلمين.

بدأ هذا الكتاب بقصة هارون الرشيد رَحْمَةُ اللَّهِ، ورأينا فيها كيف أثر مرض السكر على مسار حياته، وكيف مات في سن الكهولة بسبب واحدة من أخطر مضاعفات مرض السكر. ثم أتبعنا ذلك بشرح طبي موجز عن هذا المرض الشائع في مجتمعنا نهدف من خلاله إلى رفع الوعي الصحي عند القراء. ونظراً لما للرؤيا من عميق أثر في سياق قصة وفاة الرشيد رَحْمَةُ اللَّهِ، فقد ألحقنا بهذا الفصل مقالاً يعالج قضية تعبير الرؤى، قدمنا من خلاله قواعد عملية تساعد الناس في التفريق بين المعبر الجيد، ومن عداه في وقت أصبح تعبير الرؤى سوقاً رائجاً.

مرت بنا بعد ذلك قصة الحمى التي أصابت المتنبى، وبيننا كيف ساعدتنا بلاغة المتنبى على التعرف على نوع الحمى، التي أصابته

وهي الملاريا. ثم رأينا كيف اقترنت نشأته في وضع اجتماعي بئس مع موهبته الخارقة ونفسه الوثابة، ليخرج لنا نسيجاً فريداً، أطلقنا عليه متلازمة المتنبى.

ثم عمدنا بعد ذلك إلى فك لغز داء النزف، الذي أصاب أبناء الشاعر الكبير ابن الرومي، وتوصلنا إلى أنه مرض الهيموفيليا، وأشرنا في ثانيا الحديث إلى أثر تربية الاستحواذ على حياة ابن الرومي، وكيف صبغته بصبغتها المقلقة، التي أدت به إلى التمرد أولاً، ثم العزلة الكئيبة ثانياً.

أما وفاة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد بذلنا الوسع للتوفيق بين النصوص الصحيحة، التي أشارت إلى سبب وفاته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ناحية، وبينها وبين ما يقبله الطب الحديث من ناحية أخرى. وقد توصلنا إلى نتيجة مفادها: أن مضاعفات سم الزرنيخ وآثاره طويلة الأمد، قد ساهمت بشكل غير مباشر في إضعاف مقاومة جسده لحمى الملاريا، حين أصابته بعد أربع سنين من حادثة السم التي حدثت عام خيبر.

ثم سقنا الدلائل المتوافرة بين يدينا لبيان: أن الغدة التي قتلت عامر بن الطفيل، وأشار إليها بمقولته الشهيرة التي أصبحت مثلاً «غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية»، هي سرطان البيركت ليفوما.

أما القرحة (العدسة) التي أصابت أبا لهب، فقد غلب على
الظن بعد استقرار النصوص المتوافرة، أنها نوع من سرطان الجلد
الليمفاوي، يدعى الورم الحبيبي الفطري.

وأخيراً مرت بنا معاناة المخبل السعودي من ازدواج الرؤية،
وبينا أثر اقتران هذا المرض مع كبر السن، وفقدان الابن على حياة
الشاعر الكبير.

وهنا ينبغي أن أنوه إلى أمر كنت قد أشرت إليه في مقدمة
الكتاب، وهو أن ترتيب القصص إنما جاء وفقاً لدرجة الوثوق من
تشخيص المرض.

وختاماً: فإننا نأمل أن يساهم هذا الكتاب الموجز في إضاءة
بعض الزوايا المظلمة في مآثورنا الحضاري العظيم، وأن يكون
لبنة في مشروع ربط حضارتنا التي أشرفت الأرض بنورها منذ
خمسة عشر قرناً بالعلم الحديث، الذي ارتقى بالبشرية في مدارج
الحضارة والتقدم.

د. منصور الجابري

Email: M.ALJABRY4210@Gmail.com



ثبت المراجع والمصادر

أولاً: المصادر العربية:

- ١- القرآن الكريم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، ١٤٢١هـ.
- ٢- ابن أبي أصيبعة، أبو العباس. عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان. الطبعة الأولى.
- ٣- الأصفهاني، علي بن الحسين. الأغاني، تحقيق: إحسان عباس وإبراهيم الساقين وبكر عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة ١٤٢٩هـ.
- ٤- ابن عثيمين، محمد بن صالح. تفسير القرآن الكريم، سورة المائدة، دار ابن الجوزي، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية ١٤٣٥هـ.
- ٥- ابن كثير، إسماعيل. البداية والنهاية، تحقيق: عبدالمحسن التركي، دار هجر، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.
- ٦- ابن كثير، إسماعيل. تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي السلامة. طبعة دار طيبة، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ.
- ٧- ابن منظور، جمال الدين محمد. لسان العرب، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩م.

- ٨- أبو خليل، شوقي. هارون الرشيد أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا، دار الفكر، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.
- ٩- الآلوسي، محمود شكري. بلوغ الأرب في معرفة أخبار العرب، تحقيق محمد بهجة الأثري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م.
- ١٠- البجاوي، علي ومحمد إبراهيم. أيام العرب في الجاهلية، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٩م.
- ١١- البخاري، محمد بن إسماعيل. صحيح البخاري، تحقيق: مصطفى البغا، دار ابن كثير، بيروت، لبنان، الطبعة الخامسة ١٤١٤هـ.
- ١٢- البرقوقى، عبدالرحمن. شرح ديوان أبي الطيب المتنبى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة ٢٠١١م.
- ١٣- البيهقي، أحمد بن الحسن. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق: عبدالمعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.
- ١٤- الترمذي، محمد بن عيسى. سنن الترمذي، تحقيق: صدقي جميل العطار، طبعة دار الفكر، بيروت، الطبعة العاشرة ١٤٢٥هـ.
- ١٥- الدينوري، ابن قتيبة. الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد شاکر، طبعة دار المعارف، القاهرة، مصر الطبعة الثانية ١٩٥٨هـ.
- ١٧- السامرائي، كمال. مختصر تاريخ الطب العربي، دار النضال، بغداد، العراق.

- ١٨- السيوطي، جلال الدين. تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد غسان نصوح، دار المنهاج، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة ١٤٣٤هـ.
- ١٩- الضامن، حاتم صالح. عشرة شعراء مقلون، جامعة بغداد، العراق، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.
- ٢٠- الضبي، المفضل. المفضليات، تحقيق: أحمد شاكر، وعبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة التاسعة ٢٠٠٦م.
- ٢١- الطبراني، سليمان بن أحمد. معجم الطبراني الأوسط، تحقيق: طارق بن عوض الله ومحسن الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، مصر الطبعة الأولى ١٤١٥م.
- ٢٢- الطبراني، أحمد بن سليمان. معجم الطبراني الكبير، تحقيق: حمدي عبدالمجيد السلفي، مكتبة دار ابن تيمية، القاهرة، مصر.
- ٢٣- القشيري، مسلم بن الحجاج. صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- ٢٤- القرني، عايض بن عبد الله. إمبراطور الشعراء، مكتبة العبيكان، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة ١٤٢٨م.
- ٢٥- العتيبي، سهل رفاع. الرؤى عند أهل السنة والجماعة والمحدثين والمخالفين، كنوز أشبيليا، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤٣٠م.
- ٢٦- العقاد، محمود عباس. ابن الرومي حياته من شعره، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى ٢٠١٢م.

- ٢٧- العسقلاني، أحمد بن حجر. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق: عبدالسلام علوش، مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ.
- ٢٨- المباركفوري، صفي الرحمن. الرحيق المختوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى.
- ٢٩- المقدسي، عبدالله بن مفلح. الآداب الشرعية، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعمر القيام، دار الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة ١٤١٩هـ.
- ٣٠- المعافري، عبدالملك بن هشام. السيرة النبوية، تحقيق طه عبدالرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، لبنان.
- ٣١- النسائي، أحمد بن شعيب. سنن النسائي، تحقيق صدقي جميل العطار، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.
- ٣٢- النووي، محيي الدين. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، تحقيق: خليل مأمون شيخا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة العاشرة ١٤٢٥هـ.

ثانياً: المصادر والمراجع الإنجليزية:

- Dangleben NL, Skibola CF, Smith MT. Arsenic immunotoxicity: a review. Environ Health. 2013;12(1):73.
- Parveen Kumar and Michael L Clark. Kumar and Clark's Clinical Medicine, 8th Edition: 2012 Elsevier publishing CO, London,UK.

- Swerdlow SH (2008) International Agency for Research on Cancer, World Health Organization WHO Classification of Tumours of Haematopoietic and Lymphoid Tissues. IARC Press, Lyon, France.
- V. Hoffbrand, D. Catovsky, E. Tuddenham and A. Green. Postgraduate Haematology, Sixth edition: 2011 Blackwell Publishing Ltd.
- Wiwanitkit V. Headache and malaria: a brief review. Acta Neurol Taiwan. 2009 Mar; 18(1):56-9.
- <http://emedicine.medscape.com/article/1214490-overview>. Accessed on June 2016.
- <http://healthh.com/mycosis-fungoides>. Accessed on June 2016.
- <http://www.who.int/mediacentre/factsheets/fs372/ar>. Accessed on June 2016.
- <http://www.atsdr.cdc.gov>. Arsenic Toxicity. Accessed on June 2016.
- <http://www.who.int/mediacentre/factsheets/fs372/ar>. Accessed on June 2016.
- http://www.cdc.gov/malaria/new_info/2014/malariaegypt.htm. Accessed on May 2016.
- <http://www.who.int/mediacentre/factsheets/fs094/ar>. Accessed on May 2016.



سيرة ذاتية للمؤلف

الدكتور منصور سمار الجابري

المنصب:

- مدير زمالة جامعة الملك سعود لأمراض الدم ونقل الدم.
- استشاري أمراض الدم ونقل الدم بمستشفى الملك خالد الجامعي ومدينة الملك فهد الطبية بالرياض.
- أستاذ مساعد ومرشد أكاديمي للسنوات الأساسية بكلية الطب – جامعة الملك سعود – الرياض.
- عضو الكلية الملكية الأسترالية لأمراض الدم ونقل الدم.

التدريب والشهادات:

- بكالوريوس طب وجراحة من جامعة الملك سعود.
- ماجستير إدارة صحية وإدارة مستشفيات – كلية إدارة الأعمال بجامعة الملك سعود.
- زمالة جامعة الملك سعود والكلية الملكية الأسترالية لأمراض الدم ونقل الدم.

الأوسمة والجوائز:

- جائزة أفضل أستاذ جامعي في الدراسات العليا لعام ٢٠١٤م مقدمة من قسم الدراسات العليا بكلية الطب - جامعة الملك سعود.
- عضو نادي الهلال الثقافي الفائز ببطولة المملكة لعام ١٤٢٤هـ.
- قدم كثيراً من البحوث العلمية والمحاضرات في عدد من المؤتمرات العالمية المتخصصة.
- قدم كثيراً من المحاضرات التي تُعنى بفلسفة النجاح وتطوير الذات في عدد من جامعات المملكة والمجمعات التعليمية الأخرى.

الاهتمامات والهوايات:

- شاعر ومهتم باللغة والأدب.
- يعكف حالياً على تأليف كتب عدة عامة وأخرى تخصصية.

